الفصل السادس
مظاهر الحياة الاجتماعية المرتبطة بالمتنزهات

تمهيـــد:

كانت المتنزهات هى المكان المحبب لكل الناس للترويح عن أنفسهم وقضاء أعيادهم ومواسمهم إلا أنها ارتبطت بشكل خاص ببعض الأعياد والمواسم الهامة مثل موسم دوران المحمل وأعياد وفاء النيل.

وكانت مظاهر تنزه المصريين حافلة فقد عمد الناس أن يقضوا بعض أوقاتهم بالمتنزهات على أحسن ما يكون فتحرروا من كل القيود، وقضوا أوقاتهم فى لعب ومرح وسعادة

على أن الحال لم يكن دائماً على هذا النحو من التحرر وإنما تعرض المتنزهات فى بعض الأوقات خصوصاً أيام الأزمات والأوبئة والمحن لرد فعل مضاد فكان الوالى ومن معه يكبسون المتنزهات ويهجمون على من فيها.

ومن خلال حصرنا السابق للعمائر على البرك وجدنا أنها تنتمى لطبقة متميزة فى المجتمع فمعظمها عمائر سلاطين وولاة وامراء وقضاة، ولكن المتنزهات كانت مرتعاً للخاصة والعامة حتى أن البعض فتح قصوره وحدائقه للعامة، واتخذ الأمراء القاطنين بالمتنزهات مثل البرك دعوة العامة للحضور إلى قصورهم هناك كنوع من الدعاية لهم حيث أنهم أرادوا أن يحيطوا شخصياتهم فى ثوب فضفاض براق يظهرهم أمام العامة فى وضع هام ومتميز، كما أنهم كانوا يتحينون الفرص لدعوة السلطان وكبراء البلد والضيوف لينالوا شرفاً عظيماً، فأقاموا المهرجانات الكبيرة بكل ما فيها من مظاهر بذخ وجو يملؤه الفرح والسرور ليرضوا غرور المدعوّين.

وقد عُرف عن المصريين روح المرح والدعابة فى كل زمان ومكان بالرغم من خضوعهم لأرستقراطية حاكمةَ فى العصرين المملوكى والعثمانى تفننت فى استغلال البلاد وأهلها[1]، وقد ذكر «ابن بطوطة» الذى زار مصر أثناء سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون أن أهل مصر "ذو طرب وسرور ولهو" [2]، وذكر "بيلوتى الكريتى" أن ماء النيل من خصائصه أن يجعل

(١) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٠١ـ١٠٢.
(٢) الرحلة، ص ٣٨.

الناس دائماً مرحين فرحين بعيدين عن الهموم والأحزان.[١]

ونلاحظ أن روح المرح لم تقتصر على فئة دون أخرى من فئات المجتمع المصرى، بل شملت جميع الفئات من طبقات المجتمع حتى المحافظين من الفقهاء وأهل العلم[٢]، ويضرب لنا "ابن بطوطة" مثلاً يقوام الدين الكرمانى وهو من كبار علماء مصر أنه اعتاد أن يذهب إلى مواضع الفُرج والنزهات منفرداً عن أصحابه بعد صلاة العصر[٣].

ومثال لتعلق الناس بالترويح عن النفس حتى فى أحلك الظروف ما ذكره "ابن تغرى بردى" أن فى سنة ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨م كانت الدولة تستعد للقيام بحملة ضد "سوار" حاكم إحدى الدويلات التركمانية المجاورة لحدود السلطنة المملوكية بالشام "... إلا أن جماعة ممن ليس لهم مروّة ولا عرض تتنزه وتدور فى المفترجات وأكثرهم من العوام والأطراف"[٤]

ومثال آخر يبين تعلق الناس بالمتنزهات وانتهازهم الفرص للهو والمرح حتى فى ظل أحلك الظروف ما ذكره "الجبرتى" أنه فى أيام عثمان باشا الحلبى أشيع فى الناس فى يوم الاربعاء رابع عشرة ذى الحجة آخر سنة ١١٤٧هـ/ ١٧٣٥م أن يوم القيامة قائمة يوم الجمعة وفشا هذا الكلام فى الناس قاطبة حتى فى القرى والأرياف وودع الناس بعضهم بعضاً ويقول الإنسان لرفيقه بقى من عمرنا يومان وخرج الكثير من الناس والمخاليع إلى الغيطان والمتنزهات ويقول بعضهم لبعض دعونا نعمل حظا ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة[٥]

وقد عالجت فى هذا الفصل أربع نقاط هى مظاهر التنزه والاحتفال فى الأيام العادية والأعياد والمواسم التى ارتبطت بالمتنزهات، وارتباط المتنزهات ببعض الأمراض الاجتماعية ورد الفعل المضاد لها، والمتنزهات والأدب.

أولا: مظاهر التنزه والاحتفال فى الايام العادية

التنزه بالنيل وجزره والخطط عليه:

كان الخروج للنيل للتنزه على صفحات مياهه وعلى جزره والخطط التى على شواطئه مثل منشأة المهرانى وغيرها يأتى فى مقدمة الأماكن للفرجة، الترويح عن النفس خارج منازلهم

---

(١) Dopp, L'Egypte, p. 9.

(٢) ابن حجر، انباءالغمر، جـ١، ص ٥٩٣-٥٩٤.

(٣) الرحلة، ٣٨.

(٤) حوادث الدهور، جـ٣، ص ٦٨٤.

(٥) عجائب الآثار، ج(١، ص ٢١٩.

وأماكن عملهم خلال العصرين المملوكى والعثمانى.

وكانت مظاهر تلك النزهات تكون على أبدع ما يكون فى حالة وفاء النيل، ،كثيراً ما تعرضت تلك المتنزهات للخراب والهجر فى حالة عدم وفاء النيل.

وكان خاصة وعامة أهل القاهرة ينغمسون فى اللهو والقصف والفرجة وما يصاحب ذلك من مجالس وغناء وعزف وموسيقى وأطعمة وأشربة عديدة[١]، وكانت أجمل أيام الخروج هى أيام خروج السلطان وكبار الأمراء حيث تقا مهرجانات أشبه بالأعياد، وقد حرص معظم السلاطين المماليك على الخروج أحياناً للنيل، وكذلك بعض ولاة مصر فى العصر العثمانى.

ومثال للسلاطين المغرمين بالتنزه على ساحل النيل وخططه مثل منشية المهرانى السلطان الملك المنصور أبو بكر بن محمد بن قلاوون (٧٤١ ـ ٧٤٢هـ) حيث ينزل هو والأمراء خفية إلى هناك حيث يقيمون أمسيات مع المغانى وينزلون فى الشخاتير[٢] ويتفرجون ويطلعون سراً إلى القلعة[٣].

وكان الناس يتحينون أى فرصة للتفرج والاحتفال على النيل مثلما تجمعوا ببولاق وامبابة لاستقبال الأمير شيخو بعد عودته من سجنه بالاسكندرية يوم ٤ رجب سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، وقد خرج الناس للفرجة حتى بلغت المراكب التى أحاطت بالحراقة التى يركبها شيخو نحو الألف مركب، فسار شيخو فى موكب عظيم إلى الغاية لم ير مثله لأمير إلى أن صعد القلعة.[٤]

ومن السلاطين الذين اعتادوا الذهاب للنيل والاحتفال هناك والمبيت أحياناً بقصور امبابة والجيزة السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح[٥] (٧٥٢ ـ ٧٥٥هـ/ ١٣٥١ ـ ١٣٥٤م) والملك المنصور حاجى[٦] (٧٦٢ ـ ٧٦٤هـ/ ١٣٦١ ـ ١٣٦٣م) والملك الظاهر برقوق[٧].

وإذا تتبعنا سيرة السلطان الملك المؤيد شيخ نجدها تعطينا مثلاً جلياً لما كان يحدث فى العصر المملوكى من مظاهر التنزه إذ أنه كان أكثر السلاطين خروجاً وأنه قد أقام فى نزهاته أكثر مما أقام فى القلعة إذ أنه قد يبقى فى تنزهه خارج القلعة احياناً شهراً متواصلاً[٨] وبالرغم من الآلام

(١) ابن الحاج، المدخل، جـ١، ص ٢٤٦. (٢) انظر تعريف الشخاتير فيما سبق، ص ١٣٦.
(٣) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص ١٣٥، ١٤٢.، ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص ٤٦٢.
(٤) المقريزى، السلوك، جـ٢، ص ٨٤٨.
(٥) نفس المصدر والجزء، ص ٩٢٩.
(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق ١، ص ٥٨٧.
(٧) المقريزى، السلوك، جـ٣، ص ٨٨٧.
(٨) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٥٠٢، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٤، ص ٨٧.

التى عانى منها بسبب مرض رجليه إلا انه كان يداوم على الخروج محمولاً فى محفة أو على الاعناق[١].

وكان يقضى اغلب أوقاته بالنيل وجزره والخطط عليه، وأحياناً يأخذ حريمه وأولاده معه وحاشيته وكبار الأمراء[٢]، وأصبحت المراسم تتم هناك على النيل، فتدق طبلخانات السلطان وكبار الأمراء هناك وتعمل الخدمة على ما جرت به العادة فى القلعة ويذكر المقريزى "ولم نعهد بمصر نظير هذا"[٣].

وكان المؤيد ينتقل طوال فترة خروجه على النيل ما بين بيت البارزى ببولاق[٤]، إلى قصره بحرى امبابة، إلى الجزيرة الوسطى، إلى الميدان السلطانى ومنشية المهرانى أمامها، إلى بيت الخواجا ابن الخرنوبى بالجيزة المواجه للمقياس، إلى جزيرة الروضة إلى رباط الآثار النبوية، وأحياناً كان يبيت بالحراقة الذهبية[٥].

وينتقل المؤيد بين تلك الأماكن بالذهبية التى يكسر بها سد الخليج وحوله حراريق الأمراء المزينة أحسن زينة، ويجتمع الناس على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم للتفرج حيث يمتلأ البران بهم ما بين بولاق وامبابة شمالاً إلى مصر القديمة والجيزة جنوباً، "فلا ينكر على احد منهم"[٦].

وكانت تلك المهرجانات التى تقام على درجة كبيرة من الإبهار، فقد كان المؤيد يلزم الأمراء بإحضار الزيت والنفط ويلزم العامة بإشعال مسارج الفخار بالزيت والنفط وعمل مسارج أيضاً

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٤٩٩، ٥٣٤، ٥٤٢.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٤، ص ٩٥.، المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٥٢٩.

(٣) السلوك، جـ٤ و ص ٤٩٩.، وابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ٨٥.

(٤) بيت ابن البارزى كان فى الأصل لناصر الدين بن سلام فاستأجره منه ابن البارزى وأضاف إليه عدة بيوت مجاورة له واتقن بناءها ووضعها وضعاً غريباً على قاعدة عمائر بلده حماه وقد أعجب السلطان الملك المؤيد شيخ بها إعجاباً شديداً فقضى بها أغلب أوقاته. انظر: ابن حجر، انباء الغمر، جـ٣، ص ١٩٦.
* وابن البارزى هو تاجر الدين محمد بن محمد بن الفخر عثمان بن الكمال محمد بن عبدالرحيم بن عبيد الله بن المسلم البارزى (٧٦٩-٨٤٣هـ) برع فى الأدب وولى كتابة السر بالديار المصرية.
السيوطى، حسن المحاضرة، جـ١، ص ٢٧٤.

(٥) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٤، ص ٩٩.، المقريزى، السلوك. جـ٤، ص ٥٠١، ٥٢٩.، ابن الصيرفى، نزهة النفوس، ج٢، ص ٤٤٨.، العينى، عقد الجمان، (بدون ناشر) ص ٣٥٦، ابن حجر، انباء الغمر، جـ٣، ص ١٩٦-١٩٧.

(٦) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٥٠١.
* ويعبر «المقريزى» عن نفسه كمحتسب ويستنكر تلك التصرفات التى حدثت أيام المؤيد بقوله ان الناس «مر لهم جميعاً من السخف ما لم نعهد بمثله لملك قط». السلوك، جـ٤، ص ٤٣٥.

من قشر البيض وقشر النارنج وقد انغمست فيها فتايل القطن بالزيت وتشعل بالنيران ثم ترسل بعد غروب الشمس بنحو ساعة، وتطلق النفوط وتشمل وقدات نفط هائلة ببرى امبابة وبولاق، ويزدحم النيل بمراكب المتفرجين الذين يخرجون فى التهتك عن الحد ولا سيما أن تلك المهرجانات كانت بأمر سلطانى.[١]

وكان المؤيد حريصاً على الاحتفالات بطريقة مبالغ فيها فكان يأمر المماليك للعب بالرمح على شاطىء النيل[٢]، كما أنه جعل موكب المحمل يدور ببولاق ولم يقع مثل ذلك فى سالف الأعصار[٣]، وكان المؤيد يمارس رياضة السباحة فى النيل لمسافات كبيرة حتى فى ظل ظروف مرضه مما أدهش الناس[٤].

وقد حظيت بولاق بمكانة مرموقة ايامه، وقال "المقريزى: الذى عاصر تلك الأيام" . . فمرت للناس ببولاق فى تلك الايام والليالى أوقات لم نسمع بمثلها[٥]، وأغلب إقامة المؤيد كانت ببيت كاتب السر ابن البارزى الذى بات به أغلب الاحيان، وكانت الأمراء تنزل فى عدة من دور الناس حول بيت ابن البارزى[٦]، وكان ابن البارزى يبالغ فى الاحتفالات حتى أنه كان يفرش شقق الحرير تحت حوافر الخيل السلطانى[٧].

وقد ظلت مكانة بولاق مرموقة طوال العصرين المملوكى والعثمانى، وكانت تعج بالقصور والمناظر والبيوت والمساكن الممتدة على شاطىء النيل، وكان السلاطين والأمراء والولاة ينزلون بتلك القصور الفخمة مثل قصر (بيت) ابن البارزى والقصر الباسطى[٨] والقصر المعروف بالبرابخية[٩] وقصر الحجازية[١٠] وقصر الانصارى[١١] وغيرها كثير، بالاضافة لجوامعها ومدارسها الحسنة وحماماتها وأسواقها ووكائلها الشهيرة.

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٥٠١ والعينى، عقد الجمان، بدون ناشر، ص ٣٧٣.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٥٣٧.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٤، ص ٨٧.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ٥٣٤.

(٥) السلوك، جـ٤، ص ٥٠٢.

(٦) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٤٩٩.

(٧) العينى، عقد الجمان (بدون ناشر)، ص ٣٢٣.

(٨) القصر الباسطى نسبة إلى القاضى زين الدين عبدالباسط بن خليل بن ابراهيم الدمشقى ناظر الجيوش ومنشىء الجامع الباسطى بخط الكافورى بالخرنفش سنة ٨٢٢هـ. المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٣١.

(٩) القصر المعروف بالبرابخية لن أقف على الشخصية التى نسبت إليه هذا القصر، وكان القصر يقابل القصر المعروف بالحجازية. ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٤، ص ٩٥.

(١٠) القصر المعروف بالحجازية نسبة إلى مالكته خوند تتر الحجازية بنت الملك الناصر محمد بن قلاوون وزوج الأمير بكتمر الحجازى وبه عرف. المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٧١، ٣٨٢.

(١١) قصر الأنصارى هو قصر المقر الأشرف القضائى شرف الدين الأنصارى نسبة إلى زكريا بن محمد الأنصارى (٨٢٣-٩٢٦هـ)، وكان قاضياً ومفسراً ومن حفاظ الحديث تولى منصب قاضى القضاة أيام السلطان قايتباى، الزركلى، الاعلام، جـ٣، ص ٨٠.

وقد أرجع المؤرخ : ابن اياس : تعرض بولاق للخراب أحياناً إلى : كثر الفسق والفساد ببولاق جداً حتى خرج الناس فى ذلك عن الحد" ، وذلك عندما كتب عن الحريق الذى وقع بها فى جمادى الأخرة سنة ٨٦٢هـ والذى أتى على ثلاثمائة منشأة ما بين دور وربوع ودكاكين ، وكان يوماً مهولاً .[١]

إلا أن التعمير سرعان ما يعود إلى بولاق بعد المحن التى ألمت بها فتعود أبهى مما كانت وتظل دائماً قبلة المتنزهين .

وكان السلطان اينال يخرج لبولاق هو وزوجته وحاشيته ، ونزلت زوجته مرة فى القطينة ببولاق بمناسبة شفائها فى العشر الأخير من ربيع آخر ٨٥٩هـ وتزايد تردد الناس إلى بابها ولا سيما لما عملت لها مرامى النفط والصواريخ ، وغير ذلك فى ليلة الاربعاء ثامن عشرينه وتسامع الناس بذلك فقصدوا التفرج من الأماكن البعيدة حتى ضاقت شوارع بولاق وسواحلها مع سعتها عنهم ، وازدحم الناس فى الطرقات وصارت كأيام دوران المحمل أو بعض ليالى وفاء النيل بل أعظم حتى جاء جماعة من أعيان الأمراء وأرباب الدولة ، وأما النسوة فكن اضعاف الرجال ودام ذلك من أول النهار إلى بعد العشاء الاخرة ووقعت فى تلك الليلة من القبائح والمفاسد والأمور الشنيعة مالا مزيد عليه" .[٢]

وقد أورد لنا "ابن اياس" حادثة تبين لنا ما كان يحدث فى بولاق ، ففى رجب سنة ٨٦٥هـ فى أول سلطنة المؤيد احمد بن اينال" هجم المنسر على المتفرجين بجزيرة بولاق وكان فى الظلمة فى نصف الليل فنهبوا من الناس شيئاً كثيراً وكان الناس قد خرجوا عن الحد فى التهتك والقصف بسبب الفرجة ونصبوا هناك الخيام حتى سدوا رؤية البحر وصاروا يقيمون فى الرمل ليلاً ونهاراً من نساء ورجال وهم فى غاية التزخرف فهجم عليهم المنسر على حين غفلة ونهب ما قدر عليه ومضى ولم تنطح فى ذلك شاتان" .[٣]

وكان السلطان قايتباى يذهب كثيراً إلى بولاق حيث يستضيفه هناك القاضى شرف الدين الأنصارى ، ويركب الغراب الذى عمره الأنصارى ويتوجه به إلى شبرا[٤] ، وكذلك كان السلطان الناصر محمد بن قايتباى مغرماً بقضاء بعض وقته فى بولاق ويحرق إحراقات نفط حافلة وكان يبات هناك أحياناً[٥] .

---

(١) بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٣٤٧ .

(٢) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، جـ٢ ، ص ٢٢٨ . ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٣٢٤ .

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٣٧٣ـ ٣٧٤ .

(٤) نفس المصدر ، جـ٣ ، ص ١٠٨ .

(٥) نفس المصدر ، جـ٣ ، ص ٣٨٩ .

وكان السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى ينزل فى مواكب حافلة إلى بولاق حيث يضيفه القاضى كاتب السر محمود بن أجا بالبرابخية التى هناك حتى أنه تكلف على أسمطة وطوارى حافلة وتقدمة عظيمة قدمها للسلطان فى إحدى المرات فوق الألف دينار، وكان ابن السلطان معه وجماعة من الخاصكية، وانشرح السلطان هناك إلى الغاية، وأحضر بين يديه مغانى وأرباب الآلات". (١)

وفى حوادث سنة ٩١٢هـ طلعت جزيرة بولاق تجاه ربع قاتم التاجر ذكرنا من قبل أنها غالباً اندمجت ببر بولاق فيما بعد، وقال عنها "ابن اياس" . . . فصارت هذه الجزيرة فى كل سنة تزرع امقتة ورياحين فتوجهت إليها الناس وخرجوا فى القصف والفرجة هناك عن الحد وضربوا الخيام واعمل هناك اخصاص للمتفرجين بها وصاروا يبيتون هناك ليلاً ونهاراً وصاروا الناس يخرجون فى البحر إلى نصف الليل وقد قال فى هذا المعنى:

فى جزيرة بولاق رأينا عجب .. أسد صاروا معهم ظبا شاردين

حين رأينا ذيك الوجوه الصباح .. أذهلونا خضنا مع الخايضين (٢)

وكانت تتم ببولاق احتفالات بعدة موالد مثل مولد الامبابى ومولد الشيخ سويدان المجذوب فى مدرسة ابن الزمن برصيف بولاق وكان له مولد حافل. (٣)

وفى العصر العثمانى فضل السلطان سليم شاه أن يقيم اثناء وجوده بمصر على شاطىء النيل فأقام ببولاق فترة وفى الجزيرة الوسطى وفى الروضة (٤).

وكان مملك الامراء خاير بك يركب فى الذهبية ويتجول على النيل متنقلاً ما بين الروضة والقصر العينى وبركة الحبش والبريم (٥)، ويقيم له القاضى بركات بن موسى المحتسب الموائد العظيمة من خرفان شوى وحلوى وفاكهة وبطيخ صيفى وغير ذلك من مطابق ضمنها مأمونية وسنبوسك وسكر وغير ذلك أشياء فاخرة (٦).

وقد ذكر "البكرى" أن بولاق أصبحت فى زمنه فى غاية العمارة وأنها من المتنزهات الهامة فى العصر العثمانى. (٧)

---

(١) نفس المصدر، جـ٤، ص ٤٧٣ـ٤٧٤. (٢) بدائع الزهور، جـ٤، ص ١١٠ـ١١١.

(٣) نفسه، ص ١١٤.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٤٩ـ١٥٠.

(٥) البريم هو مكان على النيل يقع بمنطقة أثر النبى حالياً وكان مجاوراً لبركة الحبش.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ٢١٦، ٣٣١، ٣٨٠.

(٧) قطف الأزهار (مخطوط)، ص ١٤٦ـ١٤٧.

واثنى الرحالة "النابلسى" على بولاق وذكر فى زيارته لقبر الشيخ يوسف بها وأنه رأى على الحائط من نظم الشيخ الفاضل أحمد الدلنجاوى المالكى بخطه قوله :

إذا رمت تأتى مجمع الأنس والصفا ... لتحظى بأنـواع التنزه والفـرج

ببـولاق فأنـزل فـى ريـاض أريضـه ... حوت كل أنس فى حدايقها فرج [1]

مظاهر التنزه بالجزر :

وقد حرص بعض السلاطين على التنزه فى الجزر وخاصة جزيرة الروضة ، التى تعتبر عروس المتنزهات ،

وقد اتخذتها أم السلطان شعبان فى سنة ٧٧٤هـ مكاناً للاستشفاء وكان ابنها يزورها هناك على شاطىء نيل الروضة بمنظرة الأمير طشتمر الدوادار . [2]

وكان المؤيد كثير الخروج للروضة والإقامة بالمقياس وقد أمر بتجديد جامع المقياس وحرص على الاحتفال بتخليق المقياس وكسر سد الخليج أغلب سنوات حكمه . [3]

وكان السلطان قايتباى مداوماً على التنزه بالروضة وقضى أوقاتاً عديدة بخرطوم الروضة [4] أى الطرف الشمالى لها .

وبمناسبة الانتهاء من عمل جامع قايتباى الذى جاء غاية فى الحسن ، فقد صنع هناك ابن الطولونى معلم المعلمين ناعورة تدور بحمار وهو واقف ويحرك رجليه فقط ، وكان الناس يتوجهون للفرجة عليها ، وكان ابن الطولونى يصنع فى كل ليلة رابع عشر الشهر ليلة حافلة بالجامع ويسمونها البدرية وينصب على شاطىء البحر قدام الجامع من الخيام ما لا يحصى ، وتجتمع المراكب هناك حتى تسد البحر ويجتمع الجم الغفير من العالم ويوقد بالجامع وقده حافلة ويحضر هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ وتكون ليلة حافلة لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، واستمر الحال على ذلك مدة ثم بطل [5] .

وكان السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى أكثر السلاطين تنزهاً بالروضة حيث يقيم مخيمات ويبيت هناك وبصحبته كبار الأمراء والقضاة والعلماء ورجال الدولة ويصحب معه الضيوف أحياناً [6] ، وكان معظم إقامته بالمقياس حيث بنى القصر على بسطته ، وأحياناً يقيم

---

(١) الحقيقة والمجاز ، ص ٢٥٨ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ق٢ ، ص ١١٤ .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٤ ، ص٩٩ .

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ١٨٢ ، ٢٢٤ .

(٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٢٨٣ .

(٦) نفسه ، جـ٤ ، ص ٣٨٤ .

بخرطوم الروضة(طرفها الشمالى) وتقام الاحتفالات الكبيرة وتمد الأسمطة والولائم الفاخرة وكان السلطان يستدعى المغانى وأرباب الآلات والمهرجين والمضحكين[١]، وتقام بين يديه الاستعراضات البحرية بالحراقات وخصوصاً بعد أن انشأ ذهبية جديدة[٢]، وتطلق المدافع والصواريخ وتعمل حراقات نفط وتقاد القناديل والأمشاط وكان سكان البرين (بر مصر وبر الروضة) يوقدون على طولهما آلاف القناديل ويطلقون آلاف الصواريخ وقد تفتكوا فى القصف والفرجة حتى خرجوا فى ذلك عن الحد.[٣]

واستمر الحال كذلك فى العصر العثمانى، فقد فضل السلطان سليم الإقامة بالمقياس وطرد جنوده سكان الجزيرة ومصر العتيقة وأقاموا مكانهم فى دورهم[٤]، وقد قال "ابن اياس" فى خصوص ذلك" وفى مدة اقامة ابن عثمان بمصر لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوساً عاماً ولا رآه أنصف مظلوماً من ظالم بل كان مشغولاً بلذته وسكره وإقامته فى المقياس بين الصبيان المرد".[٥]

ومن أمثلة احتفال سليم الأول فى المقياس أنه فى جمادى الآخرة سنة ٩٢٣هـ لما كان بالمقياس احضر فى بعض الليالى خيال الظل فلما جلس للفرجة قيل أن المخايل صنع صفة باب زويلة وصفة السلطان طومان باى لما شنق عليه ولما انقطع الحبل مرتين فانشرح ابن عثمان لذلك وانعم على المخايل فى تلك الليلة بمائتى دينار والبسه قفطان مخمل مذهباً[٦].

وظل الولاة بمصر على صلة وثيقة بجزيرة الروضة وذلك لرئاستهم للاحتفال بوفاء النيل سنوياً بالمقياس، وكان خاير بك كثير النزول للمقياس وإقامة الأسمطة الحافلة به[٧] مثال لذلك فى يوم الخميس ٦ من ذى القعدة ٩٢٦هـ حيث أقام فى خرطوم جزيرة الروضة مدة حافلة صرف عليها القاضى بركات المحتسب نحو خمسمائة دينار من جملة ذلك أربعون خروفاً مشوياً وأربعمائة مجمع حلوى وعدة مطابق ضمنها مأمونية سكب ومأمونية حموية بسكر وسنبوسك بسكر وأرز حلو مسكر وسمك على أنواع مختلفة وأجبان مقلى وأشياء غير ذلك مؤنقة وأحمال بطيخ صيفى وعبيدى وأطنان قصب وأحمال قشطة وبطط جلاب وأحمال موز وغير ذلك[٨].

---

(١) نفسه، ص ٣٣٧.
(٢) نفسه، ص ٢٩٨.
(٣) نفسه، ص ٢١٢، ٢١٣، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٥، ٢٦٦، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٨، ٣١١، ٣٢٨، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٦٢، ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٨٤، ٣٨٨، ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٦٦، ٤٦٨، ٤٨٤، جـ٥، ص ١٩.
(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٥.
(٥) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٥و ص ٢٠٧.
(٦) نفسه، ص ١٩٢.
(٧) نفسه، ص ٢١٦، ٢٥١، ٣٠٠.
(٨) نفسه، ص ٣٥٦-٣٥٧.

وكانت جزيرة الذهب متنزهاً جليلاً فى العصر العثمانى وكان بعض الولاة والأمراء، يفضلون الخروج إليها مثل ملك الأمراء خاير بك[1]، وظلت كذلك حتى آخر العصر العثمانى حيث قضى بها الأمير مراد بك أوقاتاً عديدة فى قصره هناك.[2]

ونافست جزيرة اروى المعروفة بالجزيرة الوسطى جزيرة الروضة فى العصر المملوكى فى الاحتفالات والتفرج بها.

وكذلك جزيرة حليمة التى ظهرت سنة٧٤٧هـ شمال جزيرة اروى واندمجت بها فيما بعد، وقال عنها "المقريزى" "... تتظاهر الناس بكل قبيح بها وبلغ مصروف كل خص فيها من الفين إلى ثلاثة آلاف درهم، وعمل كل خص بالرخام والدهان البديع وزرع حوله المقاثى والرياحين وأقام بها معظم الناس من الباعة والتجار وغيرهم وكشفوا ستر الحياء وبالغوا فى التهتك بما تهوى أنفسهم فى حليمة وفى الطينة، وتنافسوا فى أرضها حتى كانت كل قبضة قياس تؤجر بعشرين درهماً فيبلغ الفدان الواحد بثمانية آلاف درهم ويعمل فيها ضامن يستأجر منها الأخصاص فأقاموا على ذلك ستة أشهر حتى زاد الماء وغرقت الجزيرة فاجتمع فيها من البغايا والأحداث وانواع المنكرات مالا يمكن حكايته وأنفق الناس بها أموالاً تخرج عن الحد فى الكثرة وكانت الأمراء والأعيان تسير إليها ليلاً إلى أن قام الأمير أرغون العلائى فى أمرها قياماً عظيماً وأحرق الاخصاص على حين غفلة وضرب جماعة وشهرهم فتلف بها مال عظيم جداً"[3].

وكان السلاطين يقيمون مهرجانات بحرية عند تلك الجزر مثل السلطان الأشرف شعبان[4]، والمؤيد شيخ الذى كان يعسكر بها اياماً[5]. وكذلك الأشرف اينال ولكن فى بعض المرات لم يبتهج الناس بنزوله للجزيرة الوسطى "لعظم ما قاسوه من الظلم فى عمل المراكب التى كان قد أعدّها للغزو من قلة الإنصاف والجور فى حق العمال من ارباب الصنائع وغيرهم[6].

وكانت الخطط على النيل من أجمل مواضع التنزه فى العصرين المملوكى والعثمانى بما تتضمنه من حدائق وبساتين وحقول وقصور ومناظر تطل على النيل مباشرة.

---

(١) نفسه، ص ٤١٣. (٢) الجبرتى، عجائب الآثار، جـ٢، ص ٣٤٤.

(٣) المقريزى، السلوك، جـ٢، ص ٧٠٣، ـ ٧٠٤، وانظر أيضاً، الخطط، جـ٢، ص ١٨٦.، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٠، ص ١٢٨، ١٢٩.

(٤) المقريزى، السلوك، جـ٣، ص ١٣٠.

(٥) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٤، ص١٠٢.، المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٥٣٧.

(٦) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٦، ص١٥٠.

وكانت من أهم تلك الخطط منشأة المهرانى، وكان الناس على اختلاف طبقاتهم يكثرون من الخروج إلى تلك المتنزهات الخلوية ويقيمون احتفالات كبيرة بها وخصوصاً أن منشأة المهرانى ضمت مكانين حازا القبول والزيارة طوال بقائهما هما قبتى چانى بك ببستانه الكبير وقصر ابن العينى.

وكان الأمير جانى بك الدودار نائب جده الذى لقب أيضاً بعظيم المملكة يقيم احتفالات كبيرة ببستانه وقبتيه على شاطىء النيل والذى انزل بهما الصوفية، ويقيم ولائم عظيمة يحضرها أعيان الدولة، ويحتشد العامة لينالوا بعض الخيرات مما ينعم عليهم تلك المناسبات[1]، وكانت بعض الاحتفالات تتم ليلاً حيث تنصب الصوارى وتعلق القناديل ويأتى الناس زمراً فى البر والبحر بسبب الفرجة وتتزاحم المراكب هناك وتكون ليالى حافلة "قل ان يقع مثلها فى القصف والفرجة"[2].

وكان السلاطين يذهبون كثيراً إلى منشأة المهرانى ويقضون أوقاتاً طيبة وخصوصاً فى قصر العينى وقبتى وبستان جانى بك: وتجتمع سائر الناس للفرجة" ومنهم السلطان خشقدم الذى أُعجب بقصر العينى إعجاباً زائداً وكان ابن العينى يقدم الأسمطة الحافلة والفواكه والحلوى وبعد تناول السلطان والأمراء الطعام، يتخاطف العوام ما تبقى من طعام وحلوى وفاكهة.[3]

واستمر نزول ولاة مصر إلى نشأة المهرانى فى العصر العثمانى بدءاً من ملك الأمراء خاير بك الذى أقام عدة ولائم حافلة بقصر ابن العينى كان يشرف على إعدادها القاضى الزينى بركات المحتسب.(٤)

وظل الولاة بقية العصر العثمانى يفضلون الذهاب إلى جهة قصر العينى[5] ويلعب أمامهم الصناجق والأغوات بعض الألعاب مثل الجريد والرمى بالبندق وغير ذلك[6].

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٦، ص ٢٧٧. حوادث الدهور، جـ٤، ص ٧٦٦-٧٦٧.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٠٦.

(٣) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، جـ٣، ص ٥٤١.، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٢٨، ٤٤٩.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ٣٩٧، ٤٥٧، ٤٦٣.

(٥) الجبرتى، عجائب الآثار، جـ١، ص ٥٠٢.

(٦) الدمرداش، الدرة المصانة، ص ١١٤.

* البندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها وترمى بها الطيور، وكان لرمى البندق شأن كبير فى العصور الوسطى بمختلف البلاد ومنها مصر حتى أن خط البندقانيين بالقاهرة ينسب إلى صناعة أقراص البندق. المقريزى، السلوك، جـ١، ص ١٧٢، حاشية(٢).

وكانت جهة قصر العينى مكاناً يبعث على رقة النفس والصفاء لهذا أقيمت به عزومات الصلح بين بعض الطوائف المتصارعة مثلما حدث يوم الخميس ١٢ شوال ١١٣٥هـ\١٦ يوليو ١٧٢٣م وكان يوماً عظيماً[١].

وقد اثنى الرحالة النابلسى "على جهة قصر العينى وأبدع فيها قصيدة شعر.[٢]

وكانت الخطط على النيل جنوب القاهرة متنزهات سلطانية أيضاً وكان السلطان قايتباى كثير الخروج إلى المعادى وطرا والمعصرة بقصد التنزه، وكان يبيت هناك أحياناً فعلى سبيل المثال أنه فى يوم الأحد الثانى من صفر ٨٢٣هـ ركب السلطان من القلعة يجمع أمرائه وخاصكيته بغير قماش الموكب وتوجه إلى جهة العدوية[٣] وقد نصب بها خام عظيم عند زاوية الرفاعى على البحر[٤] فلما قارب المكان المذكور خلع سلارية وعباءة فرسه ثم أطلق عنان فرسه غاره وكذا جميع أعيان العسكر إلى المعيصرة[٥] فى مشوار واحد ثم عاد إلى مخيمه بالعدوية وأكل السماط مع الأمراء وأقام هناك إلى بعد أذان الظهر فمد مدة أخرى غير أطعمة من أنواع البطيخ والأجبان والمخللات شيئاً كثيراً بحيث كفى العسكر ثم ركب وعاد من وقته إلى القلعة ووصل إليها قبيل العصر[٦].

واستمر قايتباى كثير التوجه إلى تلك الجهات على سبيل التنزه حيث يضيفه هناك شيخ هذه الجهات ويسمى ابن البلاح أو يضيفه الأمير أزبك الأتابكى[٧].

وكان السلطان الغورى يذهب إلى طرا كثيراً ويقيم الموائد الحافلة ويستعرض هناك المراكب الجديدة الكبيرة التى تنشأ فى بولاق وكان يرجع من هناك عن طريق البحر راكباً الحراقة التى يكسر فيها السد والعسكر حوله فى عدة مراكب[٨].

---

(١) أحمد شلبى، أوضح الاشارات، ص ٣٧٠.

(٢) الحقيقة والمجاز، ص ٢٠٤، ٢٥٦.

(٣) العدوية المقصود بها المعادى حالياً وتسمت بذلك الاسم نسبة إلى دير العدوية الذى لايزال بمكانه الآن كنيسة العذراء على كورنيش النيل بالمعادى.

(٤) زاوية الرفاعى هذه لاتزال موجودة حتى الآن وهى عبارة عن حجرة صغيرة مغطاة بسقف جمالونى، وله مولد كل عام، وتقع على الطريق الزراعى على بعد ١٠٠ من مدخل المعادى الأول عند المعهد القومى للتنمية الإدارية بكورنيش النيل.

(٥) المعيصرة، هى منطقة المعصرة البلد الآن على كورنيش النيل تمييزاً لها عن المعصرة المحطة.

(٦) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، جـ٣، ص ٦٧٥. ، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٩.

(٧) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص١٩، ٣٣، ٥٣، ١٠٧، ١١١.

(٨) نفس المصدر، جـ٤، ص ٢١٥-٢١٦.

استعراضات الاسطول فى النيل :

هناك احتفالات فى العصر المملوكى صارت تقليداً وعادة اتبعت فى ثلاث مناسبات متعلقة بالأسطول، الأولى أيام الانتهاء من صنع المراكب الكبيرة والثانية يوم خروجها للغزو والثالثة يوم عودتها، وكان بعض السلاطين حريصين على متابعة عمارة المراكب المعدة للغزو أو لتأديب قراصنة البحر الأبيض المترسط منهم الظاهر بيبرس[١]، والأشرف برسباى[٢]، والأشرف إينال[٣].

وكانت مراكب وسفن الاسطول تقوم بعمل استعراضات بحرية كبيرة ومناورات على القتال البحرى، فيحتشد خاصة وعامة المصريين من كل مكان للفرجة بأعداد غفيرة ويستأجر الناس المراكب فى هذه الأيام بأغلى كثيراً من قيمة تأجيرها فى الأيام العادية وتقوم السفن بدق الكوسات[٤] وإطلاق النفوط وكأنها فى اشتباك حقيقى مع سفن العدو[٥].

وأول من أحدث عادة الاستعراضات بالنيل فى العصر المملوكى هو السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى عقب الانتهاء من عمارة مراكب حربية جديدة، ومن أمثلة ذلك ما حدث يوم الاحد ١٩ رجب ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م بعد أن أتم الظاهر عمارة عدد كبير من الشوانى الحربية[٦] والطرايد[٧] وغيرها من المراكب وقد اصطحب بيبرس معه الخليفة العباسى الحاكم

---

(١) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٩٤.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ٢٧١. ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٩٥.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٦، ١٥٠.

(٤) الكوسات هى صنوجات من نحاس يدق بأحداها على الآخر. انظر:
عبدالمنعم ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ٨٢، نظم دولة سلاطين المماليك، جـ٢، ص ١٨٠.

(٥) قاسم عبده، النيل، ص ٩٠.

(٦) الشوانى جمع شينى أو شونه أو شينية، وهى من أهم قطع الأسطول فى عهد المماليك وهى سفن حربية كبيرة معدة للجهاد، وذكر «ابن مماتى» أن الواحده منها كانت تسير بمائة وأربعين مجدافاً وفيها المقاتلة والجدافون، وأشار «المقريزى» إلى أن بعضها كان يقل الفا من المحاربين، وهى مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم وتحتوى على اهراء (مخازن) لخزن القمح وصهاريج لخزن الماء العذب. انظر:
ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص ٣٤٠. ، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٩٤. ، جـ٢ ص ١٩٤-١٩٥.
سعاد ماهر، البحرية، ص ٣٥٢-٣٥٣. ، درويش النخيلى، السفن الإسلامية، مادة شينى.

(٧) الطرايد جمع طريدة وهى مركب تستخدم لحمل الخيل والفرسان وأكثر ما يحمل فيها أربعون فارساً، ويقول «دوزى»: الطراد نوع من المراكب الحربية لا يزيد طولها عن سبعة أذرع، وعرضها ذراعين ونصف ذراع، وهى أكثر شبهاً بالبراميل منها بالسفن الحربية وليس لها سقف وتكاد تكون خالية تماماً من المسامير ولذا كان ألواحها الخشبية رقيقة وصلبة وقد استعملها بكثرة صلاح الدين الأيوبى. انظر: سعاد ماهر، البحرية، ص ٣٥٤. ، Dozy, Supp. 2, p34.

بأمر الله إلى ساحل الفسطاط حيث تفرجا على لعب الشوانى فى النيل " على هيئة محاربتها للعدو فى البحر ذهاباً وإياباً والطبول والبوقات والنقوط عما له " وقد خرج الناس لمشاهدتها فكان يوماً مشهوداً[١] .

وقد أمر بيبرس بعمارة عدة شوانى سنة ٦٧٠هـ بديلاً عن الشوانى التى تكسرت فى حملته الفاشلة على قبرص سنة٦٦٩هـ، ولازم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كل يوم فى مدة شهر المحرم سنة ٦٧٠هـ إلى أن أنجزت، وفى نصف المحرم سنة ٦٧١هـ لعبت الشوانى بين يديه فكان يوماً مشهوداً[٢] .

واهتم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بإنشاء أسطول قوى فى صناعة مصر سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م وقد عهد بإعداده وتجهيزه إلى الوزير شمس الدين محمد السلعوس، فلما اكتمل عدد السفن ستين شينياً شحنها بالعدد والآت الحرب ورتب لها عدة من المماليك السلطانية وألبسهم السلاح " فأقبل الناس لمشاهدتهم من كل أوب قبل ركوب السلطان بثلاثة أيام وصنعوا لهم قصوراً من خشب وأخصاص القش على شاطىء النيل خارج مدينة مصر وبالروضة واكتروا الساحات التى قدام الدور والزرابى بالمائتى درهم كل زريبة فما دونها بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر إلا وخرج أهله أو بعضهم لرؤية ذلك فصار جمعاً عظيماً وركب السلطان من قلعة الجبل بكرة والناس قد ملأوا ما بين المقياس إلى بستان الخشاب إلى بولاق، ووقف السلطان ونائبه الأمير بيدار وبقية الأمراء قدام دار النحاس ومنع الحجاب من التعرض لطرد العامة فبرزت الشوانى واحدة بعد واحدة وقد عمل فى كل شونه (شينى) برج وقلعة تحاصر والقتال عليها ملح والنفط يرمى عليها وعدة من النقابين فى أعمال الحيلة فى النقب ومامنهم إلا وأظهر فى شونته عملاً معجباً يفوق بها على صاحبه، وتقدم ابن موسى الراعى وهو فى مركب نيلية فقرأ قوله تعالى " بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم " ،ثم تلاها بقراءة قوله " قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء . . " إلى آخر الآية، هذا والشوانى تتواصل بمحاربة بعضها بعضاً إلى أن اذن صلاة الظهر فمضى السلطان بعسكره عائداً إلى القلعة فأقام الناس بقية يومهم وتلك الليلة على ما هم عليه من اللهو فى اجتماعتهم وكان شيئاً يجل وصفه وانفق فيه مال لا يعد . . . وحصل لعدة من النواتية أجرة مراكبهم عن سنة فى هذا اليوم . . فبلغ خبر الشوانى إلى بلاد الفرنج فبعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون الصلح " . [٣]

---

(١) النويرى، نهاية الارب جـ٣٠، ص ٢٥، المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٤٥١، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٣٢٠.

(٢) النويرى، نهاية الارب، جـ٣، ص ١٩٧، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٩٤.

(٣) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٩٥.

ومن الاحتفالات الكبيرة بمناسبة انتهاء صنع السفن وإلاذن بتدشينها ما حدث يوم السبت ١٢ محرم سنة ٧٠٢هـ حيث انجزت عمارة أربعة شوانى حربية كبيرة وجهزت بالمقاتلين والعدد والسلاح والعتاد والنفطية، والأزوده وزينت أحسن زينة فخرج معظم الناس لرؤيتها يومين بلياليهما على الساحل بالبرين وكان جمعاً عظيماً إلى الغاية، وكان يرأس الشوانى الأمير جمال الدين أقوش القارى، واجتمع الناس لمشاهدة لعبهم فى البحر، ونزل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون والأمراء لمشاهدة ذلك واجتمع من العالم ما لا يحصيهم الا الله تعالى، وارتفعت قيمة أجرة المراكب ارتفاعاً كبيراً "امتلأ البران من بولاق إلى الصناعة بمصر بالناس حتى لم يوجد موضع قدم خال، ووقف العسكر على بر بستان الخشاب وركب الأمراء الحراريق إلى الروضة" وبدأت المناورات البحرية من لعب الشوانى كأنها فى الحرب، فلعب الأول والثانى والثالث وأعجب الناس بذلك إعجاباً زائداً لكثرة ما كان فيها من المقاتلة والنفوط وآلات الحرب، والناس فى سرور بالغ لما يشاهدون ولكن تلك البهجة والفرحة لم تكتمل إذ أن الشينى الرابع بعد ما خرج من مينا الصناعة حتى توسط البحر لعبت به الريح حتى غرقت ونجا الجميع فيما عدا قائد الشوانى الأمير جمال الدين أقوش "[١]

وفى سنة ٧٦٤هـ حدث استعراض ومناورة لبعض قطع الأسطول على صفحة نهر النيل، " . . . وكان يوماً مشهوداً لم ير مثله فى سالف الأعصار" حيث أتى الناس من كل مكان للاستمتاع والفرحة بذلك المهرجان البحرى الكبير. [٢]

وفى سنة ٧٦٨هـ فى سلطنة الأشرف شعبان تمت فى صناعة جزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطانية عمارة مائة مركب ما بين غربان[٣] وطرايد لحمل الرجال والخيل جهزها الأمير يلبغا ألاتابك للقيام بحملة على جزيرة قبرص رداً على مهاجمة ملكها لثغر الاسكندرية فى المحرم

---

(١) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٩٥، السلوك، جـ١، ص ٩٢٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ١٥٥-١٥٦. ، السيوطى، كوكب الروضة (مخطوط)، ص ٣٩.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١١، ص ٣٥-٣٦.

(٣) الغربان أو الأغربة جمع غراب وهو نوع من السفن الحربية التى كانت تستعمل فى البحر الأبيض المتوسط منذ أيام الامبراطورية الرومانية والأرجح أن هذا النوع من السفن سمى بهذا الاسم نظرا لمشابهته لهذا الطائر من حيث السواد لطلائها بالقار والزفت وكذلك لاستواء مناقيرها على حد قول النويرى فى مخطوطة الاعلام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية، وتختلف الأغربة بعضها عن بعض من حيث الحجم ما بين صغيرة وكبيرة وذلك لعدد مجاديفها التى تتراوح ما بين عشرة ومائة وثمانين مجدافاً، ويقول ابن شداد «من خصائصه أنه كان مزوداً بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيقاتلون بالأساليب البرية. سعاد ماهر، البحرية، ص ٣٥٩-٣٦٠. ، ابراهيم حسن سعيد، البحرية فى عصر سلاطين المماليك، (ط دار المعارف، ١٩٨٣م)، ص ٢٣٢-٢٣٣. ، عبدالمنعم ماجد، نظم دولة المماليك، جـ٢، ص ١٩٢.

من السنة السابقة[1]، فشحنت الأغربة بالرجال والآلات والعدد الحربية وزينت بالأعلام، ونزل السلطان الملك الاشرف شعبان بن حسن من القلعة وركب فى موكب حافل وتوجه إلى جزيرة أروى فنزل هناك فى المركب المسماة بالذهبية، وقد امتلأت تلك الأراضى بالناس فقدمت الشوانى ولعبت قدامه رجالها بالآلات الحربية كما يفعل عند لقاء العدو ودقت كوساتها ونفخت بوقاتها وزعقت الزمور وفرقعت النفوط " فكان أمراً مهولاً ومنظراً جميلاً وأمراً حسناً "، وقد تجمع على شاطىء النيل الناس من كافة أنحاء المدينة للفرجة على تلك المناورة البحرية وانشرح الجميع فى ذلك إلى الغاية ". [2]

واستمرت الاحتفالات والاستعراضات البحرية فوق مياه النيل بمناسبة إتمام عمارة السفن والمراكب بقية العصر المملوكى وجزءاً من العصر العثمانى، فعلى سبيل المثال فى سلطنة الغورى تم الاحتفال فى سنة ٩١٤هـ بتدشين ستة أغربة صنعت فى رشيد وأرسى بها عند رأس الجزيرة الوسطى فخرج الناس يتفرجون عليها وقد زينت بالصناجق والشطفات ودقت فيها الطبول وزعقت الزمور واجتمع الناس هناك أفواجاً فلما كان يوم الثلاثاء ٢٦ شعبان سنة ٩١٤هـ، نزل السلطان الغورى من القلعة وصحبته الأمراء قاطبة والمباشرون وتوجه إلى نحو طرا وضرب له هناك الخيام ثم أحضر بين تلك المراكب الأغربة فلعبوا قدامه فى البحر ذهاباً وإياباً والطبول والنفوط عمّاله وأرموا قدامه فى البحر عدة مدافع وكان له يوم مشهود، واجتمع هناك الجم الغفير من الناس، وأقام السلطان هناك إلى بعد العصر ومد له هناك ناظر الخاص أسمطة حافلة ولم يقع للسلطان من حين تسلطن يوما مثل ذلك فى القصف والفرجة، فلما ركب من هناك أخلع على ناظر الخاص كاملية بصمور وأخلع على رئيس المراكب وجماعته الخلع السنية ثم عاد إلى القلعة. [3]

وفى يوم الأربعاء ثالث عشرين صفر ٩١٧هـ ذهب السلطان الغورى إلى طرا حيث احتفل بتدشين مركب كبير فى النيل صنعت فى رصيف بولاق، فلما كمل " زينوه بالصناجق والطوارق والمكاحل " وتوجهوا به إلى طرا وعرضوه على السلطان فى البحر وأرموا قدامه بالمدافع ذهاباً وإياباً كما فعل قبل ذلك لما عرض المراكب الأغربة وكان يوماً مشهوداً وعاد السلطان بالحراقة التى يكسر فيها السد[4].

---

(١) عن حملة ملك قبرص على الإسكندرية فى محرم ٧٦٧هـ، انظر: النويرى السكندرى (محمد بن قاسم بن محمد ت ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م)، الالمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الاسكندرية مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٣٩٤٢ تاريخ، ٤١٩٣ تاريخ.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ٣، ص١١٣، ١٢٩، ١٣٠، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص٢٧، ٢٨، ٤٤، ٤٥، ٤٦.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص١٤٢-١٤٣.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢١٥.

وفى سنة ٩١٨هـ تمت عمارة مركب كبير للسلطان فأُحضر إلى ساحل الفسطاط أمام المقياس وصنعوا له ثمانية مراسى فى النهر وعلقوا فى صواريه القناديل والأعلام وأحضرت النفوط وأنزلت فى خمسين مركباً وحضر الأمراء المقدمون بطبلخاناتهم فى مراكب أمام المقياس " . . وكانت تلك الليلة من الليالى المشهودة فى القصف والفرجة " وكالعادة ارتفعت فيه كرى المراكب فى هذا اليوم فتحصل للنواتية مال كثير من نقل المتفرجين بمراكبهم .[١]

واستمرت الاستعراضات والاحتفالات بمناسبة تدشين المراكب فى بداية العصر العثمانى " ففى ربيع الآخر سنة ٩٢٦هـ نزل ملك الامراء(خاير بك) إلى بولاق وأقام بها إلى قريب النهار فأحضر إليه القاضى بركات بن موسى المحتسب هناك مدة حافلة بين خرفان شوى وقدور هريسة ومأمونية وفاكهة وحلوى وغير ذلك، ثم أن ملك الامراء عرض المراكب الأغربة التى أنشأها ولعبوا قدامه فى البحر وانشرح فى ذلك اليوم إلى الغاية ونصب له سحابة فى الجزيرة التى تجاه امبابة وكان يوماً مشهوداً[٢] .

وكانت أيام خروج الأسطول فى حملات حربية لغزو جزر البحر المتوسط ومحاربة القراصنة من أبهج الأيام بمصر فكان الناس يحتشدون على الشاطىء للفرجة وترتفع الأصوات بالدعاء والعود الظاهر بين دقات الطبول والزمور والكوسات التى عادة ما كانت تصحب مظاهر الاحتفال بخروج إحدى الحملات .

ومثال لذلك ما حدث فى رجب سنة٨٢٩هـ فى زمن السلطان الأشرف برسباى إذ شهد النيل احتفالاً كبيراً بمناسبة خروج الحملات ضد جزيرة رودس فكان ليوم خروج المجاهدين بساحل بولاق نهار يجل الوصف تجمع فيه الناس للفرجة على المسافرين من الأقطار والبلاد والنواحى " حتى صار ساحل بولاق لا يستطيع الرجل أن يمر فيه لحاجته إلا بعد تعب ومشقة زائدة، وعدى الناس إلى البر الغربى ببر امبابة وبولاق التكرور ونصبوا فيها الخيم والأخصاص " ، هذا وقد امتلأت صفحة النيل بمراكب المتفرجين، : وأما بيوت بولاق فلم يقدر على بيت منها إلا من يكون له جاه عريض أو مال كبير، وتقضى للناس بها أيام سرور وفرح وابتهال إلى الله تعالى بنصر المسلمين وعودتهم بالسلامة والغنيمة "[٣] .

وفى سنة ٨٤٤هـ أمر السلطان الظاهر جقمق بخروج حملة للقضاء على " عبث الفرنج فى البحر وأخذها مراكب التجار " وقد خرجت هذه الحملة المكونة من خمسة عشر غراباً فيها المقاتلون من المماليك السلطانية والمتطوعون من عامة الناس من ساحل بولاق فى احتفال هائل

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢٧٦ـ٢٧٧ .

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ٣٣١ .

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٤، ص ٢٨٩ .

حضرته جموع المصريين التى دأبت على مشاهدة مثل هذه الاحتفالات وتكررت الصورة ولنفس السبب سنة٨٤٦هـ وفشلت الحملة الأخيرة وان كان خروجها من ساحل بولاق قد تم بين مظاهر الاحتفال المعهودة فى مثل هذه المناسبات[١].

وعن الاحتفال عند عودة الأسطول من الغزو والمجاهدة فإن الناس جميعاً تستقبله حيث يتجمعون فى ساحل بولاق أو ساحل الفسطاط مثلما حدث سنة٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م أذ قدمت بعض سفن الأسطول المصرى إلى ساحل بولاق وهى تحمل الأسرى والغنائم فاجتمع الناس لمشاهدتها والاحتفال بها[٢].

وكان مثلما تجمعوا فى ساحل بولاق سنة٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م عند عودة الحملة من قبرص منتصرة ظافرة فى زمن الأشرف برسباى ووافق ذلك يوم وفاء النيل وعيد الفطر "فتضاعفت مسرات الناس من كل جهة"[٣]

ومن العجيب والملفت للنظر أن العامة كانوا يتحينون الفرص للتفرج والمشاهدة على الأساطيل حتى فى حالة نشوب المعارك بين طوائف المماليك، وقد يتعرضون للأخطار إلا أن حب المشاهدة والفرجة كانت تتغلب عليهم، مثلما حدث فى شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م بعد شهر واحد من تدشين الأغربة التى أشرف عليها الأمير يلبغا اثناء سلطنة الاشرف شعبان، فقد انقلب مماليك يلبغا عليه فأراد خلع الأشرف شعبان وتولية الأمير أنوك ابن اخيه بدله وكان مسرح الانقلاب جزيرة أروى ونهر النيل واستمرت المعارك بين سفن السلطان وبين سفن يلبغا عبر نهر النيل عدة أيام بينما تعطلت أسواق القاهرة "وليس للناس شغل سوى التفرج من شاطىء النيل عند جزيرة أروى على المقاتلين السلطانية واليلبغاوية"، وكان يلبغا قد سلطن الأمير أنوك بالجزيرة، ولكن العامة تعصبت للأشرف شعبان فصاروا يرقصون ويقولون "سلطان الجزيرة ما يساوى شعيرة" يقصدون التهكم بأنوك، وسبح العامة إلى معسكر السلطان الملك الأشرف ببر امبابة واستمرت المعارك بين مراكب الطرفين والرمى بالنشاب والمكاحل والمدافع فترة حتى انتهى الامر بفرار يلبغا إلى القاهرة حيث قتله مماليكه.[٤]

---

(١) العينى، عقدالجمان (مخطوط)، جـ٢٥، ورقة ٧١٨، ابن تغرى بردى، (ط كاليفورنيا) جـ٧، ص ١١٢، ١٢٢، عن قاسم عبده قاسم، النيل، ص ٩٣.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ٣، ص ٥٣٣.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٤، ٢٦٩.

(٤) المقريزى، السلوك، جـ٣، ص ١٣٣-١٣٦-١٣٦.، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١١، ص ٣٦-٤٠، السيوطى، كوكب الروضة (مخطوط)، ص ٤٠-٤١.، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٤٦-٥٠.

مظاهر التنزه بالبرك :

وكانت بركة الشعيبية قبل دثورها تدخلها الشخاخير فى زمن النيل أى أيام فيضانه وقال عنها ابن دقماق "كانت نزهة المصريين"[١] ربما يقصد سكان مصر الفسطاط .

وكانت بركة الحبش من أجل متنزهات مصر الاسلامية ، وقد جمعت بين جميع طوائف المجتمع المصرى على اختلاف أجناسهم وعقائدهم وطبقاتهم الاجتماعية من خلفاء وسلاطين وأمراء وجنود وأعيان وعامة ، كما كانت البركة وما يجاورها مكاناً للتريض وإقامة المسابقات الرياضية بالخيول والجمال ، كما كانت مسرحاً لتدريب الجنود بالسلاح والرماح .

وكانت هى المنتزه الرئيسى لولاة مصر منذ فتحها وصارت محفل الخلفاء الفاطميين الذين أسعدوا شعب مصر بمظاهر الاحتفالات بها طوال دولتهم[٢] .

وقد اهتم سلاطين المماليك اهتماماً كبيراً بالتنزه والتريض ببركة الحبش فكان يصحبون معهم الأمراء والجنود والحاشية ويقضون أوقاتاً طيبة بها فينصبون خياماً ويمدون الموائد الحافلة ويقيمون مسابقات للخيول ، وكانوا يستعرضون الهجن التى تعد لأجل الحج ، كما كانوا يصطادون بها حيث أقام الناصر محمد بن قلاوون مسطبة للطير هناك .

ومن السلاطين الدائمى النزول للبركة الاشرف خليل بن قلاوون[٣] ، وكان الناصر محمد ينزل إلى المصطبة التى هناك ويأمر بإطلاق الطيور وإطلاق طيور الصيد عليها لاصطيادها[٤] وكان الأمير أنوك ابن الناصر محمد قد عمر حوشاً للطيور وموضعا يتنزه به على بركة الحبش وكان مشغوفاً بمغنية اسمها زهرة يقضى غالب وقته معها على البركة[٥] . وكان السلطان المؤيد شيخ كثير الذهاب إلى بركة الحبش حيث يقيم مسابقات بين الهجن ويطمئن على الجمال المعدة لركب الحجاج[٦] . وكذلك كان الظاهر خشقدم (٨٦٥ـ ٨٧٢هـ) يخرج إلى بركة الحبش مع أمرائه ومماليكه ويستعرض تدريبات المماليك الرماحة الذين يلعبون بالرمح أثناء دوران المحمل المعد للحج[٧] .

---

(١) ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٥٥ . ، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٥٩ .

(٢) عن الاحتفال ببركة الحبش زمن الفاطميين، انظر : المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٥٤ـ١٥٥ .

(٣) ابن ايبك، كنز الدرر، جـ٩، ص ١٥٣ .

(٤) المقريزى، السلوك، جـ٢، ص ٢٠٨ .

(٥) نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٩٢ .

(٦) نفس المصدر، جـ٤، ص ٥٠، ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٤٢٨، ٤٢٩، ٤٤٨ . ، العينى، عقد الجمان (بدون ناشر)، ص ٣٣٤، ٣٥٦ .

(٧) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، جـ٣، ص ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٩٣ .

وقضى السلطان قايتباى (٨٧٢ـ ٩٠١هـ) أوقاتاً طيبة ببركة الحبش وبساتين الوزير حيث يلعب هناك الكرة ويستعرض الخيل والإبل المعدة لركب الحجاج، وبات قايتباى بعض الليالى هناك[١]. وكان السلطان الغورى يتنقل ما بين بركة الحبش وبين طرا[٢].

وقد توجه ملك الأمراء خاير بك هناك عدة مرات وأعد له القاضى الزينى بركات المحتسب هناك الولائم الحافلة بالطعام والشراب وبصحبته كبار قادة الجيش العثمانى[٣]، وكانت بركة الحبش هى مكان إعداد الفرق العسكرية فى العصر العثمانى ومحطة هامة بالنسبة لأمراء الصعيد.

وبالنسبة لبركة الرطلى نجد أنه بالرغم من أن سكان بركة الرطلى يمثلون طبقة متميزة فى المجتمع فى العصرين المملوكى والعثمانى إلا أن العامة وبقية طوائف الشعب يشاركونهم فى التنزه والتفرج بالبركة، وكان الاحتفال هناك علي مدار العام، ففى الصيف والخريف يكون فيضان النيل فتمتلأ البركة بالماء وتدخلها مراكب النزهة، وفى فصل الشتاء والربيع تزدهى البركة بمنظر آخاذ من نمو الأزهار والمزروعات بها وخصوصاً منظر القرط والكتان مما هيج احاسيس الشعراء فأفاضوا بالكثير من الأشعار فى وصف البركة وما حولها.

وكان الناس يأتون البركة أيام اجازتهم وخصوصاً أيام الجمع والآحاد حيث يجتمع هناك عالم لا يحصى وتدور بهم الشخاتير التى تدخل البركة عن طريق الخليج الناصرى والخليج الكبير فتدور بأرجائها، وتموج البركة بالنشاط والحيوية بما عليها من قوارب وما بها من اسواق عائمة بجميع أنواع المأكولات والمشروبات[٤]، وقد تعددت مظاهر الاحتفال بالبركة من السياحة بها وإقامة مخيمات بربوعها وإقامة الاحتفالات حيث يشترك أعلام الغناء والموسيقى وأرباب الألعاب وخيال الظل، وتقام إحراقات نفط هائلة، وكانت المراكب والبيوت حول البركة توقد ليلاً بالقناديل فتحيل الليل نهاراً.

وقد توفرت للمتنزهين بالبركة حرية كبيرة لم تتوفر لهم داخل المدينه ففشت بينهم الأمراض الاجتماعية وساعد جو الثراء حولهم فى ذلك فأقيمت الليالى ذات الترف الشديد وحفلت بمجالس شراب من خمور أو من الموادالمخدرة التى كانت تزرع بالبركة وحولها بأرض الطبالة، وشاركت النساءالرجال واختلطن بهم وهن متبرجات ويحدثنا «المقريزى» أنه أدرك

---

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، جـ٣، ص ٦٩٧ . ، ابن الصيرفى، انباء الهصر، ص ٤٣، ٤٥، ٤٦، ١٣١، ١٤٠، ١٤١ . ، ابن اياس، بدائع الزهور ز جـ٣، ص ١١، ٢٦.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ١٦٨.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ٢٨٨، ٣٨٠، ٤٤٤.

(٤) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٦٢ . ، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١١، ص ١٧١.

التنزه بهذه البركة من سنة ٧٧٠هـ حيث كانت بمنأى عن الأحداث التى تدمر البلاد والناس يستمتعون بأيامهم هنالك غاية الاستمتاع، وقد ذكر «المقريزى» أن البركة تأثرت بما حدث بمصر من المحن التى بدأت سنة ٨٠٦هـ[١]، إلا إننا نرى هذا التأثير كان مؤقتاً وسرعان ما عادت البركة كما كانت وأعمر من قبل.

وقد حرص بعض السلاطين على الخروج والتفرج بالبركة ولا سيما الملك المؤيد شيخ أكثر سلاطين المماليك خروجاً وكان يستضيفه هناك صلاح الدين خليل بن الكويز ناظر ديوان المفرد فى بيته على البركة الرطلى ويمد له الأسمطة الحافلة[٢].

وكان السلطان قايتباى ينزل ضيوفه هناك، وعلى سبيل المثال نزل قاضى مكة وأخاه وابن أميرها ببيت أم ناظر الخاص يوسف على البركة ورتب لهم ما يكفيهم من أسمطة وغير ذلك فرأوا فى ذلك البيت بهجة أيام النيل حتى سافروا[٣].

ومثال للأيام الحافلة التى شهدتها بركة الرطلى ما حدث فى شعبان سنة ٨٨٦هـ، بمناسبة ختان أولاد القاضى كاتب السر ابن مزهر ببركة الرطلى وكان له مهم حافل جداً وحضر عنده جماعة من الأمراء المقدمين والعشرات وحضر عنده جمجمة بن عثمان[٤]، وبات عنده وقد وصف «ابن اياس» ذلك الاحتفال وصفاً دقيقاً إذ كان شاهد عيان للأحداث فى نهاية الدولة المملوكية وبداية الدولة العثمانية بمصر، فقال «وكان النيل فى أواخره فأمر كاتب السر سكان البركة بأن يوقدوا فى البيوت وقدة حافلة وشرع يرسل لكل بيت فى البركة عشرة أرطال زيت وطبلية فيها أكل فاخر من طعام ذلك المهم فاحتفلوا فى الوقدة وعلقوا فى الطيقان الأحمال والتنانير والأمشاط معمرة بالقناديل حتى كانت البركة تضىء بالنور ويكان الإنسان أن يدخل الخيط فى خرم الإبرة من عظم ضوءالنور، وأحرق حراقة نفط حافلة لم يسمع بمثلها حتى خرجت البنت فى خدرها بسبب الفرجة على ذلك وبلغ كرى كل مركب أربعة اشرفية، واستمرت هذه الوقدة وحراقة النفط ثلاث ليال متوالية حتى عد ذلك من النوادر التى لم يقع مثلها، واجتمع بالبركة نحو أربعمائة مركب موسوقة بالخلايق، وصار ابن رحاب المغنى عمال فى كل ليلة وسائر مغانى البلد من رجال ونساءوانطلقت ألسن النساء بالزغاريت وأنفق فى

---

(١) الخطط، جـ٢، ص ١٦٢.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٥٢٨.، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٤، ص ٩٤.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٩٣.

(٤) جمجمة هو أخو السلطان العثمانى بيازيد (٨٨٦-٩١٨هـ/ ١٤٨١-١٥١٢م) حضر إلى مصر، ومعه والدته وأولاده خوفا على نفسه من أخيه السلطان أن يقتله وذلك لأن البلاط العثمانى اتبع سنة شنيعة وهى أن من يتسلطن كان يبادر بقتل اخوته حتى لا يزاحموه على العرش.

تلك الليالى من الأموال ما لا يحصى حتى قيل ابتاع من عصفور الجبّان على المتفرجين بنحو مائة وعشرين ديناراً جبن مقلى وكذلك ابن الزيبق الحلوانى ابتاع منه حلوى بنحو ذلك، وقد خرجت الناس فى القصف والفرجة عن الحد وقد رسم السلطان للقاضى كاتب السر أن لا يبقى ممكناً فى هذا المهم لأجل الجمجمة ابن عثمان كونه كان حاضراً فى هذا المهم وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء:

طـــابت على بركة الرطـــلى ليلتنـــا ... حتى تباهـــت على الخلجان والبـــرك

حفت بضـــوء مصابيح زهـــت وغذت ... تضىء فى حندس الديجور والحـــلك

فكان لما تنـــاهى حســـن وقدتهـــا ... تخفى شمس الضحى فى داره الفلك

وقال الشمس القادرى:

تاه الأنام بجنـــح الليـــل فاتخـــذوا ... لهم دليـــلا لذا الظلماء من اللهـــب

حتى كأن جـــلاليب الدجى رغـبت ... عن لونها وكان الشمس لم تغب[1]

ومن الأيام الحافلة التى شهدتها البركة أيام شهر ربيع الآخر سنة ٨٩٩هـ حينما عين السلطان قايتباى الأمير ماماى من خداد الدوادار الثانى بأن يتوجه رسولاً إلى سلطان الدولة العثمانية «فشرع ماماى فى عمل يرق[2] حافل وصنع له ردكاً ببركة الرطلى فى زمن الشتاء وصار يوقد فى كل ليلة هناك وقدة حافلة وهرعت الناس إلى هناك بسبب الفرجة وعمر الجسر وسكن به الناس أياماً فى قلب الشتاء حتى عد ذلك من النوادر وكان يعمل هناك فى كل ليلة خيال ظل أو مغانى غرب أو ابن رحاب المغنى أو غير ذلك من الملاهى وكانت ليالى مشهودة فى القصف والفرجة حتى خرج الناس فى ذلك عن الحد وأقاموا على ذلك نحوا من عشرين يوماً ثم سافر الأمير ماماى...»[3].

أما السلطان الملك الناصر محمد بن قايتباى فكان ينادى فى سكان بركة الرطلى بأن يوقدوا بها وقدة سبع ليال متوالية. «وصار ينزل فى المركب ويطوف بالبركة هو وأولاد عمه»[4].

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

* ونلاحظ دقة ابن اياس فى وصف تلك الأحداث الاجتماعية فى ذلك النص حتى انه امدنا ببعض أسماء البياعين التى قلما يأتى ذكر لهم فى التاريخ الذى أرخ للملوك والسلاطين غالبا.

* ونلاحظ ان الأديب قد اقتبس البيت الثانى من قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية.

(٢) يرق كلمة تركية معناها سلاح. انظر:

أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل، (ط دار المعارف) ص ٢١٠.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٩٩.

(٤) نفسه، جـ٣، ص ٣٩٧. ويذكر «ابن اياس» عن الناصر محمد بن قايتباى أنه كان أهوجاً فى تصرفاته=

وشهدت بركة الرطلى احتفالات كبيرة زمن السلطان قانصوه الغورى وخصوصا إنها تضم بيوت الوزراءوالأعيان وكبار رجال الدولة، ومنهم على سبيل المثال القاضى الزينى بركات بن موسى المحتسب، وقد حدث فى شهر جمادى الآخرة سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م أن تغير خاطر الغورى على الزينى بركات لشجاره مع الوزير الجمالى يوسف البدرى، فحبسه ثمانية أيام ولكنه أفرج عنه بعدها وخلع عليه كاملية صوف بصمور «ونزل من القلعة فى موكب حافل ومعه جماعة من أرباب الدولة فزينت له القاهرة ووقدت له الشموع والقناديل على الدكاكين وتخلق الناس بالزعفران حتى زينت له بيوت بركة الرطلى بالشدود الحرير والكوامل الحرير الملون فعلقت فى الطبقان وانطلقت له النساء بالزغاريت ولاقته الطبول والزمور ومغانى النساء وكان ساكناً ببركة الرطلى فى أيام النيل وكان الزينى بركات محبباً للناس فى أيام ولايته على الحسبة..»[1].

ومن الأيام المشهودة التى عاشتها البركة أيام شهر شعبان سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م، فقد صدر أمر سلطانى بالزينة والاحتفال بالقاهرة لأجل عافية السلطان من مرض ألم بعينه وكان الاحتفال عظيماً ببركة الرطلى لأن الزينى بركات المحتسب كان ساكناً بها فأشهر الزينى «المناداة لسكان بركة الرطلى بأن يصنعوا بها وقدة حافلة ويزينوا الطبقان لأجل عافية الملك فانطلقوا سكان بركة الرطلى بالزغاريت وعلقوا فى الطيقان الشدود الحرير الأصفر والكوامل الحرير الملون ودارت الطبول والزمور فى المراكب يهنئوا أعيان الناس من سكان البركة بعافية السلطان، ثم أن سكان البركة شرعوا فى أمر الوقدة فعلقوا فى الطيقان أحمال وأمشاط فيها القناديل فاحتفلوا سكان البركة بوقدة عظيمة ثلاث جمع متوالية وصارت فى كل ليلة تدور المراكب بالمتفرجين ويقع بالبركة من القصف والفرجة ما لا يحصى وصفه ولا سيما قد صار أمرا سلطانياً وكان النيل فى أواخره فخرج الناس فى ذلك عن الحد وصار يقع فى البركة كل ليلة أمور غريبة من سماع مغنى لطيفة ووقدة ونفوط تحرق وأشياء حافلة»[2].

واستمرت البركة موضع نزه واحتفالات عامة فى العصر العثمانى وينقل لنا المؤرخ الواعى

= وأفعاله وكانت أيامه كلها فتن وقد ضرب «ابن اياس» مثالاً على ذلك أنه كان إذا رأى امرأة جميلة فى بيتها ببركة الرطلى يهجم عليها ويطلع لها من الطاقة ويأخذها غصبا ويضرب زوجها بالمقارع فى وسط بيته فارتابت الناس منه.

كما ذكر أيضاً أنه كان يخالط الأوباش وكان به طيش ورعونة وخفة وسفه، ومن الأمور التى كان يفعلها أنه جعل له مركبا فى البحرة التى بالقاعة التى بالقلعة وصنع فيه حلوى وفاكهة وجبن مقلى وكان ينزل بنفسه فى المركب ويبيع كما يصنع البياعون فى بركة الرطلى. انظر: بدائع الزهور. جـ٣، ص٣٥٦، ٣٩٧.

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢٧٤ـ ٢٧٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٣٣ـ ٣٣٤.

«ابن اياس الذى أرخ للحياة الاجتماعية بكل دقة وأمانة قلما تطرق إليها كثير من المؤرخين - صورة اجتماعية مسرحها بركة الرطلى -، ففى يوم الأحد ٩ ربيع الأولى سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م» وقع بين شخص من أرباب الفن يقال له محمد بن سرية وبين شخص يقال له محمد الأوجاقى ويعرف أيضا بالشرابى، وقع بينهما رهان فى فن الموسيقى، فقال محمد الأوجاقى: إن كان ما تدعيه حقاً فنجمع مشايخ أرباب الفن ونجمع مغنى البلد قاطبة ويكون ذلك فى يوم الأحد فى وسط بركة الرطلى، وكان ذلك فى زمن الربيع، فلما كان الميعاد حضر جماعة من أرباب الفن، وحضر مغانى البلد قاطبة، وأتوا إلى بركة الرطلى فجلسوا فى وسطها، واجتمع هناك الجم الغفير من المتفرجين، وكان ذلك اليوم مشهوداً فغنى كل أحد من المغانى فى ذلك اليوم أحسن ما عنده من الغناءنوبة، وابتهج فى ذلك اليوم الناس غاية البهجة، وأما محمد بن سرية فإنه احتج بأنه ضعيف فى ذلك اليوم ولم يحضر وقال: الرهان باقى إلى يوم الأحد الثانى فظهر عليه العجز ولم يف بما إدعاه مما تقدم فكان كما قيل فى المعنى:

كل من يدعى بما ليس فيه　　كذبته شواهدالامتحان

فانفض ذلك الجمع وعد ذلك من النوادر فى الفرجة والقصف».[1]

وقد ظلت بركة الرطلى تتمتع بمكانة كبيرة فى العصر العثمانى كله، يأتيها الناس للتفرج والاحتفالات، وقد أورد لنا المؤرخ «البكرى» ما يفيد ذلك فذكر فى ثنايا كلامه عن محمد ا باشا[2] الذى تولى حكم مصر سنة ١٠٠٤هـ». وقد جعل لى والدى فى أيامه فرحاً كان نادرة الزمان وفريداً فى الحسن والإتقان أبذل فيه أموالاً كثيرة وتجمل فيه بتجملات غزيرة أصرف فيه من النقد نحو خمسة آلاف دينار ومن الأقمشة وغيرها ما يزيد على هذا القدر ونزل فيه البكرى بيت المذكور «أى الباشا العثمانى» وذلك بمنزل والدى المطل على بركة الرطلى المعروف بالشادروان وجلس فيه ثلاثة أيام مع الإحسان لساير الأنام وأرباب الملاهى المستحسنات الآتين عند سماعهم بالفرح من جميع الجهات فكانت مدة الفرح أربعين يوماً لم يذق فيها غالب أهل مصر نوما مع الوقدات الوافرة ببركة الرطلى التى أصبحت على جميع أمثالها فاخرة وذلك فى زمن النيل السعيد مازال ممتدا بعون الملك المجيد»[3].

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ٣٨٠-٣٨١.

(٢) هو محمد باشا الشريف الذى تولى على مصر لمدة سنتين وشهرين وعشرين يوما (١٠٠٤-١٠٠٦هـ/ ١٥٩٦-١٥٩٨م) عمر فى زمنه الجامع الأزهر وجدده وعمر المشهد الحسينى.

البكرى، النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية (مخطوط بدار الكتب برقم ٢٢٦٦ تاريخ)، ورقة ٣١.

(٣) النزهة الزهية (مخطوط)، ورقة ٣١.

وأما الجسر الذى كان على بركة الرطلى بينها وبين الخليج الناصرى فذكر «البكرى» ان المبانى عليه كانت مندثرة أيامه وصار غيطاً لعمه تاج العارفين الصديقى وأنشأ فيه أنواع الأشجار والزهور فصار بهجة النظار، وبقى أيامه . . «بقية صبابة المتفرجين زمن النيل»[١].

وحتى أواخر العصر العثمانى حافظت بركة الرطلى على مكانتها المعهودة حيث يتوجه إليها المتنزهون وتعمل ببيوتها أفراح تحدث عنها المؤرخون فذكر «الجبرتى» فى ترجمته للأمير على كتخدا مستحفظان الخربوطلى المتوفى سنة ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م أنه عمل لابنته التى تزوجها على بك الغزاوى «فرحاً عظيماً ببركة الرطلى أيام عدة كانت من مفترجات مصر»[٢].

أما عن بركة الفيل فقد كانت من متنزهات مصر الهامة منذ زمن الدولة الطولونية حتى القرن الماضى، وفى العصرين الفاطمى والأيوبى كان ما حول البركة بساتين وفضاء ولم تتطرق إليها المبانى بعد وإنما مجرد مناظر للنزهة، وقد وصفها الرحالة «ابن سعيد» الذى زار مصر فى زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب فقال «إن بركة الفيل ظاهر القاهرة وهى دائرة كالبدر والمناظر حولها كالنجوم وعادة السلطان يركب فيها وتُسرج أصحاب المناظر على قدر همهم وقدرهم فيكون بذلك منظر عجيب»[٣].

وفى العصرين المملوكى والعثمانى بنى حولها السلاطين والولاة والأمراء والأعيان، القصور والمناظر الفاتنة وسكنوا بها، وكانت الناس تأتى إليها فى أيام النيل وتتنزه بها بالشخاتير وفى الشتاء تكون البركة مزروعة بالزراعات الشتوية التى تعطيها منظراً أخاذاً، وقد ظلت على هذا الوضع المميز حتى ردمت نهائياً فى أواخر القرن الماضى.

ويكفينا أن ننظر فى ولوحه الكتاب وصف مصر لنرى بها الناس يتحركون على صفحات مياهها بالشخاتير والبعض الآخر يفترش على ضفافها ويلعبون بالآلات الموسيقية.

أما عن بركة الأزبكية فقد كانت متنزهًا فى زمن الدولة الفاطمية عندما كانت تعرف ببركة بطن البقرة ولكنها هجرت فى زمن الشدة العظمى فى زمن الخليفة المستنصر بالله وعمرها بعد ذلك الخليفة الآمر بأحكام الله وظلت كذلك حتى تأثرت زمن السلطان المملوكى الملك العادل كتبغا، وكانت مهجورة فى أيام «المقريزى» إلا بقية منها يجتمع فيها الناس للنزهة[٤].

---

(١) نفسه، ص ٧٣.

(٢) عجائب الآثار، جـ١، ص ٣٩٦.

(٣) المغرب فى حلى المغرب، ص ٢٦. ، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٦٢.

(٤) الخطط، جـ٢، ص١٦٣.

وظلت كذلك حتى عمرها الأمير الأتابكى أزبك من طوخ تلك العمارة الرائعة لتلعب دوراً كبيراً فى زمن السلطان قايتباى، وأمست لها الصدارة بين البرك فى متنزهات العصر العثمانى.

وقد شهدت البركة فى أثناءسلطنة الأشرف قايتباى احتفالات كبيرة، وقد حضر قايتباى افتتاح عمارة قاعات الأزبكية فى جمادى الأولى سنة ٨٨٢هـ وبات فى ضيافة أزبك هناك[١]..

وعندما اكتملت عمارة الأزبكية كلها سنة ٨٨٩هـ أصبح يقام فيها احتفال كبير بمناسبة كسر السد على الخليج الذى يمدها بالماء والذى تسمى باسم خليج بركة الأزبكية حيث تجتمع عندالأمير أزبك الأمراءالمقدمون بالقصر «وتأتى الناس أفواجا ويكون لها يوم مشهود كان يصنع بها فى كل سنة وقدة حافلة وتحرق بها حراقة نفط وتدخل إليها المراكب قاطبة ويكون لها ليلة حافة لم يسمع بمثلها وينفق فى تلك الليلة أموال جمة بسبب الفرجة بها وتضرب حول البركة عدة خيام ويقع بها من القصف والفرجة أشياءغريبة وتكون ليلة حافلة»[٢]

وظل الاحتفال بكسر سد خليجها يتم سنويا بعد أيام قليلة من كسر سد الخليج[٣]، وكان يقام بها من حين لآخر ولائم كبيرة ووقدات حافلة وإحراقات نفط هائلة[٤]، وقد ذكرت من قبل أن الأزبكية أصبحت مقر الأتابكية لهذا كانت للأتابكة أيام مشهودة بها، وكذلك شهدت حفلات زواج كبيرة تخصهم، مثل زواج الأمير قانصوه خمسمائة على ابنة الأتابكى أزبك فى شهر رجب سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م،[٥] وزواج أصلباى أرملة السلطان قايتباى من جانبلاط الذى تولى السلطنة باسم العادل فى ١٩ شعبان ٩٠٥هـ/ ١٥٠٠م، «وكان به من الأمتعة والتحف ما يعجز عنه الواصفون»[٦] ولم لا وهى زوجة سلطان سابق وأم سلطان سابق.

وكانت الاحتفالات ببركة الأزبكية هائلة فى العصر العثمانى وخصوصاً أن السادة البكرية كانوا يحتفلون بمولد النبى هناك[٧].

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٣٤.
(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١١٨.
(٣) نفسه جـ٣، ص ٢١٩، ٢٦٧، ٣٠٥، السخاوى، الضوءاللامع، جـ٢، ص ٢٧٢.
(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٩٦، ٤٦٧.
(٥) نفسه، جـ٣، ص ٢٤٢.
(٦) نفسه، جـ٣، ص ٤٢٩.
(٧) الجبرتى، عجائب الآثار، جـ٢، ص ١٣٥، ٥٣١، ٥٩١، ـ٥٩٣، جـ٣، ص ١٢٢. =

وكانت البركة تعتبر المتنزه الرئيسى للقاهرة آنذاك، ففى موسم الفيضان تعج صفحة مياهها بالناس فى الشخاتير، وتقام احتفالات عظيمة بربوعها فى مناسبات مختلفة وخصوصاً وإن معظم سكانها كانوا يمثلون أعلى طبقة فى المجتمع فى العصر العثمانى، فتنصب الزينات وتقام السرادقات والمخيمات حولها، ويجتمع خلق كثير من سكان القاهرة فى قهاوى الأزبكية ويتجمعون حول الشعراء والمداحين لسماع القصص الشعبى على أنغام الربابة، وكانت تقام فى المناسبات الدينية مواكب الطرق الصوفية بأعلامهم ورياتهم ويقومون بالأذكار فى جوامع الأزبكية.

وقد زار مصر فى العصر العثمانى العديد من الرحالة وكلهم أثنوا على الأزبكية بقصورها وبساتينها وما يتم فيها من احتفالات وألعاب وترفيه.

ومن أوائل الرحالة الذين زاروا مصر فى العصر العثمانى «ابن الوزان» المعروف بليو الأفريقى، وقد ذكر أن عادة سكان القاهرة أن يجتمعوا كل يوم جمعة بعد الصلاة فى الأزبكية لأنهم يجدون هناك بعض المسليات القبيحة كالحانات والعاهرات ويتجمع أيضاً فى هذه الساحة عدد كبير من البهلوانيين وبالأخص من يرقصون الإبل والحمير والكلاب وهو منظر ممتع حقاً[1] ويضرب «ابن الوزان» مثلاً شيقاً لذلك[2]، ويذكر أيضاً انه يجتمع بالأزبكية ضاربو السيوف والعصا والمصارعون وغير ذلك من وسائل التسلية وإلى جانب المغنون والمنشدون يتغنون بالوقائع بين العرب والمصريين أثناءفتح مصر[3].

وقد اهتم الرحالة الفرنسيون بزيارة الأزبكية وقد اعتبروها «من أجمل مناطق القاهرة ومنازلها من أفخم المنازل وهى منطقة منخفضة عن القاهرة تنتشر بها الأشجار الجميلة وبها شوارع جميلة ومساجدها مزينة وعندما تمتلىء بركتها بالمياه يركب السكان المراكب ويتنزهون فيها»[4].

=* وبجانب مظاهر الاحتفال المعتادة بالمولد من حفلات الذكر والإنشاد وغير ذلك كان يصاحب ذلك حفل كبير يسمى حفل الدوسة، وكيفية ذلك أن ينكب نحو من مائة أو مائتين على وجوههم فوق الأرض متلاصقين متلاحمين فتكون أجسامهم سجادة بشرية ثم يسير عليهم شيخ السجادة البكرية فوقهم ممتطياً صهوة جواده يتبعه بعض مريديه سائرين عليهم حفاة الأقدام، والذى يزعمه أولئك الدراويش بعد مرور الشيخ ومريديه فوق أجسامهم أن سنابك الجواد لم تصبهم بألم وإن هذا ينهض دليلاً على ولاية الشيخ، انظر: كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، جـ٢، ص ١٤٦-١٤٧.

(١) ابن الوزان، وصف افريقيا، جـ٢، ص ٢٠٨.

(٢) نفسه، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٣) نفسه، ص ٢١٠.

(٤) الهام ذهنى، مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١)، ص ١٠٨.

وبالرغم من إحاطة البركة بالقصور من جميع جوانبها ألا أن أصحاب الأملاك لم يمنعوا أحداً من التنزه بها، وفى هذا المعنى ذكر «الجبرتى» فى كلامه عن القصر الذى أنشأه السيد ابراهيم بن السيد سعودى اسكندر والذى آل إلى الألفى فيما بعد» . . . وجعل فى أسفله قناطر وبوائك من ناحية البركة وجعلها برسم النزهة لعامة الناس فكان يجتمع بها عالم من أجناس الناس وأولاد البلد شىء كثير وبها قهاوى وبياعون وفكهانية ومغانى وغير ذلك ويقف عندها مراكب وقوارب من تلك الأجناس فكان يقع بها وبالجسر المقابل لها من عصر النهار إلى آخر الليل من الحظ والنزاهة ما لا يوصف»[١] .

وقد رسم «الجبرتى» أيضاً فى كلامه عن هذا القصر صورة للبركة ومظاهر الاحتفال بها هى والبرك الأخرى، وكانت البركة قد تعرضت لردم جزء منها بالأتربة اثناء ترميم قصر الألفى على يد محمد على باشا، فقال » . . . ورموا جميع الأتربة فى البركة حتى ردموا منها جانبا كبيراً ردماً غير معتدل حتى شوهوا البركة وصارت كلها كيماناً وأتربة والعجيب أن منتهى الرغبة فى سكن هذه البركة وأمثالها إنما هو تسريح النظر وانبساط النفس باتساعها واطلاقها وخصوصاً أيام النيل حتى تمتلىء بالماء فتصير لجة ماء دائرة بركاوية مملوءة بالزوارق والقنج والشطيات المعدة للنزهة تسرح فيها ليلاً ونهاراً، وعند دخول الماء يوقودون القناديل بدائرها فى جميع قواطين البيوت فيصير لذلك منظر بهيج لا سيما فى الليالى المقمرة فيختلط ضحك الماء فى وجه البدر والقناديل وانعكاس خيالها كأنها أسفل الماء أيضاً وصدى أصوات القيان والأغانى فى ليالى لا تعد من الاعمار إذ الناس ناس والزمان . . »[٢]

وكان الباشوات العثمانيون يفضلون بركة الأزبكية كمكان كبير للاحتفالات فيعملون شنك وحراقات ووقدات حافلة بها ويعلقوا الزينات فى ربوعها[٣] ونظرا لكبر البركة فإنها كانت مكان أغلب سكان القاهرة فى بعض الأحداث الاجتماعية مثلما حدث فى أواخر شهر جمادى الأولى سنة ١٢٠٥هـ/ ١٩٧١م عندما سرت إشاعة بين سكان القاهرة أنه فى منتصف ليلة السابع والعشرين من جمادى الأولى سوف يحدث زلزلة عظيمة تستمر سبع ساعات، واعتقد الخاصة والعامة فى صحة ذلك الخبر، فلما كانت تلك الليلة خرج غالب الناس إلى الصحراء وإلى الأماكن المتسعة مثل بركة الأزبكية والفيل وخلافهما ونزلوا فى المراكب ولم يبق فى بيته إلا من ثبته الله وباتوا ينتظرون ذلك إلى الصباح فلم يحصل شىء وأصبحوا يتضاحكون على بعضهم[٤] .

---

(١) عجائب الآثار، جـ٢، ص ٥٦٧ .

(٢) نفسه، ص ٥٦٩ .

(٣) نفسه، ص ٧٨ .

(٤) الجبرتى، عجائب الآثار، جـ٢، ص ٩٤ .

وفى فترة الحملة الفرنسية اتخذ الفرنسيون البركة وبيوتها مركزاً لهم لأنها كانت أرقى أحياء القاهرة آنذاك فاتخذ بونابرت بيت محمد بك الالفى مقراً له ولقيادة جيشه[١]، وتوزعت قصور البركة الفخمة لقادة الحملة الفرنسية، وفى اثناء ثورة القاهرة ضدهم تجمع أغلبهم من الأحياء الأخرى التى كانوا بها إلى الازبكية[٢].

وقد قام الفرنسيون بالبركة احتفالات كبيرة سواء باعياد ومواسم اسلامية تقرباً للمصريين مثل الاحتفال بالمولد النبوى[٣]، أو احتفالات خاصة بهم مثل الاحتفالات بعيدهم القومى[٤]، أو غيرها[٥]. وقد حرص الفرنسيون على أن تكون هذه الاحتفالات على درجة كبيرة من الإبهار لكنها لم تجد صدى من أغلب أبناء مصر الذين رفضوا الاحتلال والتعامل معه مهما تقرب منهم. وقد اتخذ الفرنسيون البركة متنزهاً لهم فأقاموا بها مسرحاً كوميدياً ومطاعم وملاهى خاصة بهم.[٦]

وبالنسبة لباقى البرك نجد أن حتى البرك الصغيرة مثل بركة القرع لم تخل من احتفالات شيقة، فيحدثنا «ابن اياس» أنه بمناسبة انتهاء العمل من بناء جامع الشيخ عبد القادر الدشوطوتى فى ربيع أول ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م وبعد افتتاح الجامع «أشار الشيخ عبد القادر بفتح فم بركة القرع حتى تدخلها المراكب مثل بركة الرطلى، ففتح لها مسرب من الخليج الحاكمى من عند ذيل التمساح، وكان يوماً مشهوداً وعد ذلك من النوادر وصارت المراكب تدخلها فى كل سنة من يومئذ».[٧]

وضرب لنا «ابن اياس» مثلاً آخر للاحتفال ببركة القرع وكان ذلك فى بداية العصر العثمانى ففى شهر ربيع الآخر سنة ٩٢٤هـ «حضر شخص من حلب فهلوان (بهلوان) ونصب فى بركة القرع التى بالجنينة صوارى وحبالاً، وكان يوم الجمعة فاجتمع الجم الغفير من الخلايق، فلما صعد على الحبال أظهر أشياء غريبة فى صنعة الفهلوانية وهو واقف على الحبال، منها أنه نصب له أوماج وبتية (برميل) وأرمى بالنشاب فى البتية وهو واقف على الحبال ومنها أنه مشى على الحبال وهو مقيد وعينيه مربوطة بخرقة ومنها أنه مشى على الحبل وفى رجله قبقاب وتحته ألواح صابون وأرمى فى الأوماج وهو واقف على حمل فيه سيوف مسلولة، ومنها أنه مشى على الحبال مقلوباً وهو مغمى العينين، وأظهر من هذه الأنداب العجائب والغرائب..»[٨]

---

(١) نفسه، جـ٢، ص ١٩٣.
(٢) نفسه، جـ٢، ص ٢٢٧.
(٣) نفسه، جـ٢، ص ٢٠١-٢٠٢، ٣٠١.
(٤) نفسه، جـ٢، ص ٢٠٤-٢٠٥، ٢٠٦-٢٠٧، ٣٠٦-٣٠٧، ٣٩٦.
(٥) نفسه، جـ٢، ص ٢٣٠، ٢٤٤.
(٦) نفسه، جـ٢، ص ٢٣١، ٤٠٤.
(٧) بدائع الزهور، ج٤، ص ٩٧.
(٨) نفسه، جـ٥، ص ٢٥١-٢٥٢.

ويذكر ابن ابى السرور البكرى«المتوفى سنة ١٠٨٧هـ، أن بركة القرع ظلت متنزهاً جليلاً فى العصر العثمانى لمجاورتها لأملاك السادة البكرية وقال " ويجتمع فيها يوم الجمعة والسبت بالمقصف المعروف بالغواص والمقصف المجاور للجامع الأبيض خلق لا يحصون عدداً، وتصرف فى اليومين المذكورين أموال كثيرة جداً»[١].

وذكر «ابن اياس» عن الاحتفال ببركة الفرايين أنه فى يوم الجمعة ٢٩ جمادى الآخرة سنة ٩١٨هـ «صنع الأمير قانصوه بن سلطان جركس أحد الأمراء المقدمين وقدة وإحراقه نفط فى بركة الفرايين، مكان داره التى أنشأها هناك، فكانت له ليلة حافلة وعزم على الأمراء عنده، ونقل مراكب صغاراً على جمال إلى بركة الفرايين فكانوا نحوا من ثلاثين مركباً أو دون ذلك وأمر سكان البركة بأن يوقدوا فى بيوتهم القناديل والثريات والأمشاط فأوقدوا وقدة حافلة تلك الليلة ومد أسمطة حافلة للأمراء ولم يقع فى بركة الفرايين ليلة مثل تلك الليلة فى الفرجة والقصف»[٢].

وكما سبق القول أن المتنزهات كانت متاحة لجميع الناس بكافة طبقاتهم الاجتماعية بل أن بعض القصور على البرك أبيحت لتنزه العامة ومثال لذلك حدث فى قصر السيد ابراهيم بن مسعود على بركة الازبكية، ونرى مثال آخر يحدث ببركة الناصرية فقد أباح قاسم بك للناس الدخول لداره وحديقته العظيمة على البركة وأباح لهم التنزه فى رياضها والتفسح فى غياضها والسروح فى خلالها والتفيؤ فى ظلالها، وسماها حديقة الصفصاف والآس لمن يريد الحظ والائتناس، ونقش ذلك فى لوح من الرخام وسموه فى أصل شجرة يقرؤها الداخلون إليها فأقبل الناس على الذهاب إليها للنزاهة ووردوا عليها من كل جهة وعملوا فيها قهاوى ومساقى ومفارش وأتخاخاً يفرشها القهوجية للعامة وقللا وأباريق واجتمع بها الخاص والعام وصار بها مغان وآلات وغوانى ومطربات..»[٣].

وكذلك اثنى «النابلسى» «على القصور والبساتين على بركة الناصرية وما يتم بها من مجالس أنس وطرب فذكر أنه هو وجماعة معه ذهبوا الى البستان الزاهى والقاعة العظيمة والمقعد الذى قصرت المحاسن عليه أيما قصر وهو مشهور بقصر حجى باشا مطل على بركة الناصرية وقد حضر النابلسى جلسة سماع وموسيقى فأنشد فى ذلك قصيدة[٤].

ومثال متأخر لاحتفال عظيم فى بركة ابو الشوارب بباب اللوق، ذكر «الجبرتى» أنه فى

---

(١) النزهة الزهية (مخطوط)، ورقة ٨٠.

(٢) بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢٨٠.

(٣) الجبرتى، عجائب الآثار، جـ٢، ص ٥٢٤.

(٤) الحقيقة والمجاز، ص ٢٨٣.

أواخر ربيع الأول سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م بمناسبة افراح ابنى ولى افندى ويقال له ولى جحا على بنتين من أقارب محمد على باشا» . . . واجتمعت الملاعيب والبهلونات بالبركة وما حولها وبالشارع وعلقوا تعاليق قناديل ونجفات وأحمال بلور وزينات واجتمع الناس للفرجة وبالليل حراقات ونفوط ومدافع وصواريخ سبع ليال متوالية»[١].

مظاهر التنزه بالخلجان :

وكانت الخلجان موضع نزه عظيمة فى العصرين المملوكى والعثمانى، وكان الخليج الكبير أحد متنزهات مصر الهامة طوال التاريخ الإسلامى حتى تم ردمه نهائياً عام ١٨٩٨م، ففى فصل الصيف يكون موسم الفيضان فيدخله الناس بمراكبهم الصغيرة المسماة الشخاتير، وكان ما حول الخليج خارج القاهرة بساتين وحقول ذات منظر أخاذ[٢].

وقد رسم «ابن سعيد» الذى زار مصر فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب صورة للخليج فقال «وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر ومعظم عمارته فيما يلى القاهرة فرأيت فيه من ذلك العجائب، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب وذلك فى بعض الأحيان، وهو ضيق وعليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب والتهكم والمجانة حتى أن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب، وللسرج فى جانبيه منظر فتان»[٣].

ويقول «المقريزى» «وما برح هذا الخليج متنزهاً لأهل القاهرة يعبرون فيه بالمراكب للنزهة إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف بالخليج الناصرى»[٤]

وقد أصبح الخليج الناصرى منذ حفره سنة ٧٢٥هـ متنزهاً هاماً وفضله كثير من سكان القاهرة على الخليج الكبير[٥].

وكان خليج الزعفران متنزهاسلطانياً حيث يركب السلاطين إليه ويقيمون مخيمات على جانبيه بالمطرية على وجه خاص، وكانوا يبيتون هناك أحياناً ويظلون فى لعب وبسط وصلاة وعبادة ومسايرة واستمتاع بجو بديع ومناظر طبيعية رائعة وبيئة نقية. وبنى العديد من الامراء القصور والمناظر عليه.

---

(١) عجائب الاثار، جـ٣، ص ٥٠٧.

(٢) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٤٣.

(٣) المغرب فى حلى المغرب، ص ٣١-٣٢. ، الخطط، جـ٢، ص ١٤٤.

(٤) الخطط، جـ٢، ص ١٤٣.

(٥) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٤٣.

ومن السلاطين الذين داوموا على النزول لخليج الزعفران والتنزه بنواحيه السلطان المؤيد شيخ[١] والأشرف برسباى[٢] والظاهر جقمق[٣] وخشقدم[٤] وقايتباى[٥] والغورى[٦].

وكانت القناطر على الخليج الكبير مواضع نزه عظيمة فى العصرين المملوكى والعثمانى، ومن أهمها قناطر الأوز، حيث كان على حافة الخليج الشرقية عندها البساتين الأنيقة، وكان تجاه هذه القنطرة من الغرب منظرة البعل وبها عرفت أرض البعل التى هناك[٧].

وكان هناك صف من شجر السنط قد امتد تجاه قناطر الأوز إلى منظرة البعل وصار فاصلاً بين مزرعتين، يجلس الناس تحته يومى الأحد والجمعة للنزهة فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم ونسائهم ما لا يقع عليه حصر ويباع هناك مآكل كثيرة وكان هناك حانوت من طين تجاه القنطرة يباع فيها السمك أدركها المقريزى وقد استؤجرت بخمسة آلاف درهم فى السنة منها يومئذ نحو مائتين وخمسين مثقالاً على أن لا يباع فيها السمك إلى نحو ثلاثة أشهر أو دون ذلك ولم يزل هذا السنط موجوداً إلى نحو سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م فقطع، وإلى زمن المقريزى تجتمع الناس هناك ولكن شتان ما بين ما أدركها المقريزى وبين ما كانت عليه حين كتب الخطط.[٨]

وقنطرة بنى وائل أيضاً كانت متنزهاً هاماً وكان بجانب هذه القناطر من الجانب الغربى مقعد أحدثه الوزير الصاحب سعد الدين بن نصر الله البقرى لأخذ المكوس واستمر مدة ثم خرب، وكانت هذه القنطرة موضع فرجة وبهجة وخاصة أيام زيادة النيل وزمن الربيع.[٩]

---

(١) العينى، عقد الجمان (بدون ناشر)، ص ٢٤١.، ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص ٢٨٠، ٤٠١، ٤٠٨.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٦٧٩، ٧٦٦، ٩١٠، ١٠٢٧، ١٠٣٧، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٤، ص ٣١٢.، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٩٥.

* وكان لبرسباى بستان على خليج الزعفران يذهب إليه. العينى، عقد الجمان، نشر الزهراء، ص ٤٣.

(٣) المقريزى، السلوك، ج٤، ص ١٢٢١.، العينى، عقد الجمان (نشر الزهراء)، ص ٥٦٣، السخاوى، التبر المسبوك، ص ١٢٢.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٤٢.

(٥) ابن الصيرفى، انباء الهصر، ص ٥٠، ١٥٧، ١٦٦، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٣٢٨.، ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، جـ٣، ص ٦٠٨، ابن اياس، بدائع، جـ٣، ص ٢٧، ٤١، ٦٣، ٦٨، ٩٩، ١٢١.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢٢٩.

(٧) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٤٨.

(٨) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ١٤٨.، على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ١٩، ص ٤٣.

(٩) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٤٨.

وعند قنطرة الأميرية كان يحدث احتفال أيام وفاء النيل لأنه كان يقام سد هناك يفتح يوم النوروز.[١]

وظل الخليج متنزهاً عظيماً فى العصر العثمانى لعامة وخاصة الناس، وكان والى مصر محمد باشا الشهير بدوت كى(٩٦١-٩٦٣هـ/ ١٥٥٤-١٥٥٦م) مغرماً بالتنزه فى الخليج[٢] وكانت القنطرة الجديدة متنزهاً كبيراً فى العصر العثمانى حيث كان يجتمع بها كثير من الحشاشين لهذا سميت بقنطرة الحشاشين[٣].

والصور التى صورها الرحالة فى القرن ١٣هـ/ ١٩م تبين لنا الخليج وقد ملئته الشخاتير المتنزهين بآلاتهم الموسيقية وكانت تحيط بالخليج المقاعد والمناظر الجميلة.

وذكر جومار «أن الخليج كان دائماً وسيلة لمتعة الشخصيات الرئيسية والمشايخ وأثرياء المدينة فى زمن الحملة الفرنسية، وكان عادة المشايخ وأثرياء الأقباط التنزه فى المراكب وبصحبتهم الموسيقى والاندماج فى أنواع كثيرة من الألعاب والتسالى.[٤]

ثانياً: الأعياد والمواسم التى ارتبطت بالمتنزهات

ارتبطت بمتنزهات القاهرة بعض الأعياد والمواسم ارتباطاً مباشراً، فقد كانت المتنزهات مسرحاً للاحتفال بها فى المقام الأول إلى جانب الارتباط غير المباشر بالمتنزهات ببقية الأعياد.

وقد تنوعت هذه الاعياد والمواسم ما بين عيد ذات صفة إسلامية خالصة هو الاحتفال بدوران المحمل وخروجه، وآخر ذات صفة قومية هو مهرجان وفاء النيل، وأعياد أخرى قبطية اتخذت فى العصر المملوكى طابعاً قومياً بمشاركة المسلمين فيها مثل عيد الشهيد وعيد النيروز، إلى جانب ذلك يوجد احتفال محلى بمولد ولى من الاولياء وهو مولد اسماعيل الامبابى.

والشىء العجيب هنا أن هذه الاعياد والاحتفالات والمواسم كلها خاصة بمصر وبالأمة المصرية دون بقية البلاد والأمم، فنرى أن الاحتفال بدوران المحمل وخروجه كان وليد العصر المملوكى، لأن مصر صارت آنذاك زعيمه العالم الاسلامى، وكان السلطان المملوكى يلقب بحامى وخادم الحرمين الشريفين، فعلى الرغم من أن مصر كانت من قبل ترسل كسوة الكعبة المشرفة فإن السلطان المملوكى الظاهر بيبرس قد ابتكر الاحتفال بدوران وخروج المحمل الذى

---

(١) نفسه.

(٢) أحمد شلبى، أوضح الإشارات، ص ١١٢.

(٣) ابن أبى السرور البكرى، النزهة الزهية (مخطوط) ورقة ٧١.

(٤) وصف مدينة القاهرة، ص ١٦١.

يحمل الكسوة وجعله احتفالاً عظيماً جليلاً ليتناسب مع الزعامة الدينية لمصر وسلطانها، وكان ميدان الرميلة مسرحاً للجزء الهام من ذلك الاحتفال.

أما المهرجان الثانى العظيم فهو مهرجان وفاء النيل وكسر سد الخليج وهو عيد قومى يعتبر أهم احتفال عرفته مصر منذ فجر التاريخ وظلت مكانته محفوظة فى العصرين المملوكى والعثمانى.

وهناك بعض الأعياد القبطية اتخذت شكلاً قومياً عاماً فى العصر المملوكى مثل عيد الشهيد وعيد النيروز وغيرها من الأعياد التى شارك المسلمون فيها اخوانهم أقباط مصر، ولكن بعض هذه الأعياد لم يكتب لها الاستمرار بقية العصر المملوكى بالرغم من أن مظاهر الاحتفال بها كانت عظيمة قبل ذلك مثل عيد النيروز وعيد الشهيد وعيد الغطاس.

ب ـ الاحتفال بوفاء النيل "تخليق المقياس وكسر الخليج" :

يعتبر الاحتفال بوفاء النيل من أكبر وأعظم الاحتفالات بمصر الاسلامية إن لم يكن أعظمها بالفعل، وهو «يوم مشهود وموسم معدود ليس له نظير فى الدنيا»[١]. واعتبره المؤرخون من المحاسن والفضائل التى اختصت بها مصر والقاهرة وأهلها وما شاركها فيه غيرها من الأمم[٢]، وقد احتفل به المصريون منذ فجر التاريخ وتوارثوه عبر الأزمان حتى بطل منذ وقت قريب.

وكان الاحتفال فى مصر الاسلامية مهرجاناً قومياً شاركت فيه عناصر الأمة جميعاً ـ مسلمون وذميون ـ بكافة طبقاتهم الاجتماعية وطوائفهم ابتداءاً من السلاطين وانتهاءاً بالعامة، وكان الاحتفال فى العصرين المملوكى والعثمانى امتداداً لبعض مظاهر الفخامة والعظمة والثراء التى كانت سائدة أيام الفاطميين[٣] والذى كان احتفالهم بذلك المهرجان يفوق الوصف، وقد حافظ خلفائهم فى الحكم ـ الايوبيين ـ على كثير من المظاهر بالرغم من أن فترة حكمهم لم تكن تسمح بذلك لأنها امتازت بالحروب والفتن فى أغلب فتراتها[٤]، وبالرغم من ذلك فإن الاحتفال زمن المماليك لفت نظر الرحالة الذين زاروا مصر آنذاك ومنهم «دومينكو تريفزيان»، عندما كان على رأس سفارة كبيرة لدى السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى سنة٩١٨هـ/ ١٥١٢م، حينما شاهد الاحتفالات التى أقامها المصريون فى هذه السنة

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٢٩٤.

(٢) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٠.

(٣) عن الاحتفال زمن الفاطميين، انظر: المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٠ـ٤٧٩.

(٤) عن الاحتفال زمن الأيوبيين، انظر: أحمد عبدالحميد خفاجى، جوانب من الحياة الاجتماعية فى مصر فى العصر الأيوبى، (مجلة الآداب، جامعة الاسكندرية، مجلد ٢٩، سنة ١٩٨١).

عند وفاء النيل على ذلك بقوله: «والواقع أن لهم الحق فى كل ذلك لأننا نستطيع أن نؤكد أن حياة مصر كلها تتوقف على فيضان النيل وإليه مرجع الثروة الطائلة التى نشاهدها فى مصر»[1].

وكان يسبق الاحتفال تمهيد أساسى يبدأ قبل الاحتفال بمدة تقرب من شهرين فعند بداية الفيضان يتم مراقبة زيادة النيل يومياً[2]، وكان ذلك يبدأ فى اليوم السادس والعشرين من شهر بؤونه القبطى (المعادل لشهر يونيه الميلادى)، فكان ابن ابى الرداد[3] المشرف على مقياس النيل فى جزيرة الروضة يحسب ارتفاع مياه النيل فى قاع المقياس ويبدأ إعلام الناس بمقدار الزيادة فى اليوم التالى مباشرة، وفى عصر كل يوم يقيس ابن ابى الرداد مقدار الزيادة لكى يعلنها مناديو البحر فى الطرقات والأسواق حتى يطمئن الناس، ،كانوا ينادون على ارتفاع النيل

(١) Schefer (c), Voyage de Magnifique et Tres Illustre Cheralier Domenico Trevisan (Paris 1864), pp. 206 - 207. سعيد عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص ١٩٧.

(٢) حافظ المصريون فى العصر المملوكى على مراقبة زيادة النيل وحساب ارتفاعه كل يوم بالأصابع لأن النيل كان - ولا يزال - هو قوام الحياة المصرية، فإذا تأخر أو توقف عن الزيادة عم الناس القلق وارتفع سعر القمح وتزاحم الناس على شراء الغلال ويكون الغلاء، وعندئذ تفزع الدولة فيأمر السلطان القضاة الأربعة والمشايخ والعلماء أن يتوجهوا إلى المقياس بالروضة حيث يواصلون تلاوة القرآن الكريم والحديث والدعاء بزيادة النيل، وكذلك يطوف المنادون فى شوارع القاهرة ليأمروا الناس بالصيام ثلاثة أيام والخروج إلى جامع عمرو بن العاص أو الجامع الأزهر أوا لصحراء لصلاة الاستسقاء والدعاء بزيادة النيل، ويشترك فى هذا الدعاء سائر الناس من رجال الدين والعلم والصوفية والأمراء والعوام نساءً ورجالاً صغاراً وكباراً حتى أهل الذمة كانوا يخرجون مع المسلمين إلى الصحراء ويصلون ويدعون من أجل زيادة النيل.
ولم يكن نقص الماء هو السبب فى الصلوات والدعاء وإنما كان يحدث أحياناً أن يزيد النيل عن الحد فيغرق البلاد والأراضى فيأمر السلطان بالصلاة والدعاء لأجل ذلك بالاضافة لأوامره بحفظ الجسور وعدم الغفلة عنها. انظر: السخاوى، والتبر المسبوك، ص ٣١٠، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٦.، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٦٨١ - ٦٨٢.، خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٩.، سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٩٨.

(٣) كان أقباط مصر هم الذين يتولون قياس النيل حتى عام ٢٤٧هـ حين بنى الخليفة المتوكل على الله العباسى مقياس الروضة فأمر بعزل الأقباط عن ولاية المقياس وأمر أن يتولاه مسلم فتم اختيار ابن أبى المرداد واسمه عبدالله بن السلام بن أبى الرداد المؤذن وأجرى عليه صاحب خراج مصر آنذاك راتباً شهرياً قدره سبعة دنانير، ولما توفى سنة ٢٦٦هـ/ ٨٧٩م ظل هذا المنصب متوارثاً فى عائلته حتى أن «على مبارك» يذكر أن بعض القياسين فى زمنه يذكرون أنهم من سلالة ابن أبى الرداد، وقد كان لعائلة ابن أبى الرداد مكانة كبيرة فى العصر الفاطمى إذا كانوا يشتركون فى مراسم الاحتفالات وتجرى عليهم أرزاق كثيرة ويخلع عليهم الخلفاء الخلع الثمينة، وظلت مكانتهم مرموقة فى العصر المملوكى ينعمون بالخلع والانعامات من السلاطين والأمراء ولهم رواتب سنوية معلومة، انظر: ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص ٧٦.، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٧، ٤٧٧.، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٣٧٥.، على مبارك، الخطط التوفيقية جـ١٨، ص ٢٠.

بالأصابع فقط دون ذكر أذرع المقياس[١]. ولكن ابن ابى الرداد كان يكتب فى كل يوم بياناً لأعيان الدولة من أرباب السيوف والأقلام فيذكر زيادة النيل فى ذلك اليوم من الشهر العربى وموافقة من القبطى بعدد الأذرع والاصابع، ويذكر ما كانت زيادته فى مثل اليوم من العام السابق والفرق بينهما فى الزيادة والنقصان، ولا يطلع على ذلك التقدير عامة الناس فإذا أوفى النيل ستة عشر ذراعاً صرح فى المناداة فى كل يوم بما زاد ويصير ذلك مشاعاً عند جميع الناس.[٢]

وقد ذكر بيلوتى الكريتى Pilote De Crete الذى زار مصر فى مطلع القرن التاسع الهجرى/ ١٥م، أنه شاهد زمن الفيضان عدة فرسان يخرجون كل يوم وهم يرفعون الأعلام فوق أكتافهم ثم يتجهون إلى المقياس لكى يعرفوا مقدار زيادة النهر ثم يسيرون خلال الشوارع والطرقات ويصيحون «أن النهر زاد كذا»[٣]، وهؤلاء الفرسان الذين وصفهم بيلوتى هم الذين أطلقت عليهم المصادر العربية اسم «مناديو البحر»[٤]، ويبدو دورهم مشابها لدور وسائل الاعلام فى عصرنا الحالى من حيث نقل أخبار الفيضان اليومية إلى الناس[٥].

وكان الاحتفال بوفاء النيل يتم فى فصل الصيف وخاصة فى شهر أغسطس الموافق لشهر مسرى القبطى[٦]، وهو الشهر الذى يبلغ فيه فيضان النيل الدرجة الكافية التى تسمح بالاحتفال وهى ١٦ ذراعاً. ونلاحظ انه ليس للاحتفال يوم محدد مثل باقى الأعياد والمواسم،

---

(١) النويرى، نهاية الارب، جـ١، ص ٦٤، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٣، ص ٢٩٤.، السيوطى، كوكب الروضة، ص ٧٤.

* نلاحظ أنه قبل مجىء الفاطميين إلى مصر جرى ولاة مصر على انه إذا بدأ الفيضان ينادى على ارتفاع النيل يومياً إلا أن حكمة الفاطميين قضت بمنع هذا النداء العلنى نظرا لما يحدثه من بلبلة للأفكار واضطراب وقلق بين الشعب ووقوع الغلاء فى أسعار المأكولات والبضائع فكانت الدولة الفاطمية تكتم أمر الفيضان عن الشعب إلى أن يتم مقدار الوفاء ستة عشر ذراعاً وعندئذ يركب الخليفة إلى المقياس للاحتفال بالوفاء. لذلك فى العصر المملوكى استمر النداء بالأصابع دون التصريح بعد أذرع الفيضان حتى يبلغ الستة عشر ذراعاً. انظر: ابن ميسر، تاريخ مصر، ص ٤٤، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٣، ص ٥١٢.، عبدالمنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، جـ٢، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٣، ص ٢٩٧.

(٣) Dopp (P.H), L'EgYpte au Commencement de Quinzieme Siecle, D'apres la Traite D'emmanuel Piloti de Crete (Le Caire 1950) pp. 20-21.

(٤) السيوطى، كوكب الروضة، مخطوط، ورقة ٤٧.

(٥) قاسم عبده قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى عصر سلاطين المماليك، (دار المعارف، ص١، سنة ١٩٨٣م)، ص ١٠٧.

(٦) قمت بعمل حصر لتواريخ الاحتفال بوفاء النيل فوجدت أنه قد تم الاحتفال فى شهر مسرى بنسبة ٧٥٪ والباقى إما قبله أو بعده، وهذه النسبة وجدتها فى كتاب تقويم النيل لأمين سامى، جـ١، ص ٤١.

وإنما جعل الاحتفال مقروناً ببلوغ ماء النيل مقدار ستة عشر ذراعاً بأذرع مقياس النيل بجزيرة الروضة وهو ما يعرف بماء السلطان الذى يجب فيه الخراج[١] وحينئذ يكون الاحتفال، وكان يوم وفاء النيل أكثر تحديداً بالتقويم القبطى الذى كانت تعتمد عليه أمور الزراعة بمصر وتوارثه الاحفاد عن الاسلاف عبر القرون.

وحينما يفى النيل تكتب البشارات من ديوان الانشاء إلى سائر ولايات المملكة بمصر والشام والحجاز ابتهاجاً بذلك الحدث الجليل حتى تطمئن قلوب العباد ولتكون بمثابة اشعار باستحقاق الخراج، وهذه البشائر من خصائص الديار المصرية التى تنفرد بها[٢].

ويكون الاحتفال فى اليوم التالى لوفاء النيل ستة عشر ذراعاً، وكان الاحتفال يتم على مرحلتين، الاولى الاحتفال بتخليق المقياس والثانية الاحتفال بكسر سد الخليج، وكان ذلك يتم فى يوم واحد فى العصرين المملوكى والعثمانى بينما فى العصر الفاطمى كان بينهما بضعة أيام[٣].

ولما كان الاحتفال مهيباً زمن الفاطميين يرأسه الخليفة الفاطمى نفسه، وتبعهم فى ذلك الملوك الايوبيين فى أغلب سنين حكمهم، فإن مظاهر تلك الأبهة والعظمة قد تراجعت بعض الشىء فى العصر المملوكى، فرأينا سبعة سلاطين فقط قد رأسوا الاحتفال بأنفسهم فى فترات حكمهم، وأول هؤلاء هو الملك الظاهر بيبرس[٤]. بالرغم أن فترة حكمه اتسمت بالجهاد والحرب، وثانى السلاطين كان الملك المنصور قلاوون[٥]، وثمة فترة طويلة لم يرأس الاحتفال بعده أحد من السلاطين حتى أيام الملك الظاهر برقوق الذى رأس الاحتفال أغلب سنين حكمه محاكياً فى ذلك الظاهر بيبرس والذى ربما أراد أن يتشبه به وبأفعاله حتى انه اتخذ نفس لقبه، وقد خلفه ابنه الملك الناصر فرج فى الاحتفال بنفسه أيضاً، ،وكذلك الملك المؤيد شيخ رأس الاحتفال أغلب سنين حكمه، أما الملك الاشرف برساى فلم يرأس الاحتفال إلا

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٢٩٤.

(٢) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٨، ص ٣٢٨.

* انظر نموذج لهذه البشائر فى الملحق رقم ٣.

* وقد ذكر القلقشندى أيضاً «أن البشارة بوفاء النيل كانت تتخذ حجة لجباية بعض الأموال للبريدى (حامل البشارة) وإذا كانت الدولة عادلة لا تجبى للبريدى شىء بسبب ذلك صبح الأعشى، جـ٨، ص ٣٣٠.

(٣) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٣، ص ٥١٢-٥١٣. ، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٧.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٣٢٤.

(٥) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ٧٤، ١٤٢.

* ومن الملاحظ أن معظم المؤرخين لم يدرجوا اسم السلطان قلاوون فيمن رأس الاحتفال بتخليق المقياس وكسر سد الخليج ربما لأنهم لم يطلعوا على كتاب ابن عبدالظاهر.

سنة واحدة وهى سنة ٨٣٣هـ عقب وفاة ابنه الاكبر الذى كان يبيبه فى الاحتفال، وكان آخر السلاطين الذين رأسوا الاحتفال بأنفسهم هو الملك الظاهر خشقدم الذى أراد أن يتشبه بأستاذه الملك المؤيد شيخ.

وفى سنين عديدة كان السلاطين ينيبون عنهم أبناءهم فى رئاسة الاحتفال مثل الأشرف برسباى، والظاهر جقمق والأشرف إينال، أما باقى السنوات فكان كبار الأمراء هم الذين يتولون الاحتفال مثل الأتابك وحاجب الحجاب وأمير مجلس وأمير دوادار كبير وأمير سلاح.

وكان يحضر الاحتفال كوكبه من الأمراء أصحاب الرتب والوظائف مثل مقدمى الألوف والطبلخانات وأمراء العشرات وغيرهم، ومجموعة كبيرة من المماليك والأعيان والمشايخ ورجال العلم والادب، فضلاً عن تجمع الآلاف من عامة أبناء مصر فى مكان الاحتفال فى جزيرة الروضة وعلى صفحة النيل المبارك وعلى جانبى الخليج.

وتبدأ مراسم الاحتفالات فى اليوم السابق على تخليق المقياس بأن يعلق والى الفسطاط على الشباك الشرقى للمقياس المواجه للفسطاط الستار الخليفتى الأصفر علامة على وفاء النيل وبلوغه ستة عشر ذراعاً، فيشاهد الستار أهل الفسطاط فيستبشرون بالوفاء[١]، وتكون تلك الليلة - التى يعلق فيها الستر - من ليالى الفرح العظيمة بمصر والروضة إذ يوقد الناس الشموع والقناديل ويستأجرون المراكب بأجور باهظة وتزين حراريق (مراكب) الأمراء ويجعل فيها الطبلخانات والنفط وأنواع الزينة، فى حين يحضر استادار السلطان الكبير (المشرف على البيوت السلطانية) ليبيت فى المقياس وصحبته خازن وبعض الجمدارية (الحراس)، وكذلك يحضر بعض المقرئين لتلاوة القرآن حول الفسقية بالمقياس، أما المغانى والمنشدين فيستمرون فى الغناء والإنشاد طوال الليل لمن يكون حاضراً فى دار المقياس[٢]

أما يوم الاحتفال فيركب السلطان أو من ينوب عنه من قلعة الجبل صباحاً ولا يكون ركوبه بمظلة ولا رقبة فرس ولا غاشية التى تكون بمواكبه الأخرى الخاصة بالأعياد أو ركوب الميدان بل يقتصر على الصناجق والطبرداريه والجاويشية ونحو ذلك[٣]، وينزل السلطان من القلعة إلى باب السلسلة (باب العزب حالياً) إلى ميدان الرميلة فشارع الصليبه فشارع الجسر الأعظم تحت الكبش فيصل إلى قناطر السباع فيعبرها، ويسير الموكب حتى يصل إلى دار النحاس

---

(١) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٤٧-٤٨.

(٢) ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١١٤-١١٥.، سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٩٨-١٩٩.

(٣) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٤٧.

بجوار كوبرى الملك الصالح حالياً) فيركب هناك الحراقة السلطانية المسماة الذهبية[١]، ويركب الأمراء ومرافقره المراكب التى تزينها الأعلام الملونة والشارات الزاهية وغيرها من الزينات وتدق الطبول وتطلق الالعاب النارية (النفوط) من المراكب حتى يصل الموكب النهرى إلى دار المقياس، وقد ماجت صفحة النهر بمئات من مراكب النزهة.[٢]

وكانت الجماهير الغفيرة تصطف على جانبى الطريق من ميدان الرميلة إلى دار النحاس لرؤية موكب السلطان حتى أن الدكاكين والدور التى بالصليبة والكبش كانت تؤجر فى ذلك اليوم للمتفرجين لرؤية الموكب.

وعند وصول السلطان أو من ينوب عنه إلى مقياس النيل بطرف جزيرة الروضة يمد سماط كبير من الشواء والحلوى والفاكهة حتى إذا تناول الكبراء ما يشتهون يسمح للعامة «باختطاف» ما تبقى من أطعمة «ولا يمنع أحد من ذلك»[٣]

وبعد الفراغ من الطعام تتم عملية التخليق[٤] وذلك بأن يذاب الزعفران أو المسك والعنبر فى ماء الورد فى إناء فضى ويتناوله ابن ابى الرداد الذى يلقى بنفسه فى فسقية المقياس ومعه ذلك الإناء فيخلق عمود المقياس (أى يدهنه بالعطر) ثم جوانب الفسقية[٥].

ثم يخرج السلطان أو نائبه فيجلس بالشباك الكبير تحت الستر ويفرق الخلع والتشاريف على من له عادة بذلك مثل والى الفسطاط وريس مركب السلطان (الذهبية) ورؤساء مراكب الأمراء وغيرهم وتنتهى بذلك أول مرحلة للاحتفال لتبدأ المرحلة الثانية وهى عملية كسر سد الخليج.[٦]

---

(١) كانت الحراقة المسماة الذهبية مركباً كبيراً خاصاً بالسلطان، وكانت من شعار المملكة ولاسيما يوم وفاء النيل وكانت السلاطين تتوجه بها إلى المقياس، وكان بها ستون مقذافاً، وقد أبطلها السلطان قايتباى ضمن أشياءأبطلها من شعائر المملكة فى زمنه إلا أن السلطان الغورى أعاد بناء واحدة أخرى تماثلها صنعت فى بولاق وزينت بالصناجق والأعلام ووضعت بها الطبول والزمور والنفوط. ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٣٠، جـ٤، ص ٢٩٨.

(٢) ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١١٥. ، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٤٧. ، ابن شاهين الظاهرى، زبدة كشف الممالك، ص ٨٧، الكتبى، مباهج الفكر، (مخطوط بدار الكتب)، جـ١ ورقة ٨٦. ، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١١، ص ٢٣٣، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٣٤٩، ابن ظهيره، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٠.

(٣) كانت نفقات تلك الوليمة تجبى من الأهالى حتى أبطلها السلطان الملك المنصور قلاوون وجعل نفقات الاحتفال من بيت المال. ، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٣٦٣.

(٤) كلمة التخليق مشتقة من الفعل خلق أى دهن بالخلوق وهو العطر الأحمر. Dozy. Suppl p. 309

(٥) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٣. ، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٤٧-٤٨. ،

(٦) ابن دقمان، الانتصار، جـ٤، ص ١١٥.

ومما يجدر ذكره هنا أن نقول إن عملية التخليق هذه مرتبطة بوفاء النيل ستة عشر ذراعاً بأذرع المقياس، أما إذا لم يبلغ الستة عشر ذراعاً ففى هذه الحالة لا يخلق المقياس لأن التخليق مرتبط بالوفاء[١]

أما المرحلة الثانية للاحتفال وهى كسر سد الخليج فكانت تتم عقب المرحلة الأولى مباشرة من نفس اليوم، وذلك بأن ينزل السلطان أو من ينوب عنه من شباك المقياس المطل على النيل ويركب حراقته الذهبية[٢] التى كانت تزين بأنواع الزينة المختلفة وتسبح الحراقة فى ماء النيل وحولها حراريق الامراء وقد شحن البحر بمراكب وقوارب المتفرجين يسيرون خلف السلطان والامراء فى استعراض نهرى كبير تطلق خلالها المراكب مدافع النفوط والصواريخ وسط تهليل الطبول والزمور، حين يصل الموكب النهرى إلى فم الخليج[٣]. وفى موقع السد يكون نائب السلطان أو حاجب الحجاب منتظراً ومعه بعض كبار الأمراء فوق قنطرة السد وعند السد ينزل السلطان عن فرسه ويمسك بمعول من الذهب ويضرب السد ثلاث ضربات إيذاناً بكسر السد فيأتى جمع غفير من الناس بفئوسهم فيحفرون ذلك السد حتى يجرى الماء فى الخليج فى أقرب وقت. ثم يتطى السلطان صهوة جواده ويعود من نفس الطريق التى أتى منها إلى القلعة وينثر فى طريقه على الجماهير الغفيرة على جانبى الطريق خفائف الذهب والفضة حتى يصل إلى القلعة.[٤]

وقد حضر عملية كسر سد الخليج رحالة اجنبى يدعى انسلم فقال «أن كسر الخليج تم أمامه بمعول من الذهب الخالص».[٥]

وظل الاحتفال بوفاء النيل يوماً مشهوداً فى القاهرة ولا سيما جزيرة الروضة« حيث يحشر الناس ويحج فيه إلى المقياس»[٦]، ففى ذلك اليوم تغلق فيه الأسواق فى مصر والقاهرة ويعم الناس البشر والسرور فيهرعون إلى النيل على هيئة مواكب حيث يستأجرون السفن والمراكب ويملأونها بالطرب والغناء[٧].

---

(١) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، جـ٩، ص ٤٧٦ . ، سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٠٠.

(٢) أحياناً كان السلطان يذهب إلى المقياس بالذهبية فيخلقه ويذهب بعد ذلك لكسر السد راكباً الحراقة الصغيرة المعروفة بالقرادة. انظر: ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، جـ٣، ص ٤٧٩، ٥٠٢، ٥٤٧.

(٣) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٤٨، الكتبى، مباهج الفكر ومناهج العبر، جـ١، ق ٢، ص ٨٦ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ٢٢٣، ابن شاهين الظاهرى زبدة كشف الممالك، ص ٨٧ . ، النويرى، نهاية الارب، جـ١، ص ٢٦٤. (٤) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٤٧ـ٤٨.

(٥) Dopp (P.H), Le Caire un Par Les Voyagers Occidentaux du Moyen Age. (Buletin de Le Societe Royale de Geogrphi D'Egypte. Tome 26 p. 190, L'Egypte au Commencement, p. 21.

(٦) السيوطى، كوكب الروضة، ورقة ٣٧.

(٧) Dopp. L'Caire Vu.. T 24 p. 122 & L'Egypte.. p. 21. سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٠٠.

وأحاطت مظاهر الفخامة والأبهة والعظمة احتفالات وفاء النيل وكسر سد الخليج حتى أواخر الدولة المملوكية باستثناء بضعة اعوام إما كانت بسبب الفتن والاضطرابات السياسية أو بسبب عدم وفاء النيل[١].

ونستخلص من المصادر أن الاحتفال بوفاء النيل كان يتم أثناء النهار وقد ربط بعض مفسرى القرآن الكريم بين قوله تعالى إخباراً عن فرعون «قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى»، وبين الاحتفال بوفاء النيل على أساس أن اجتماع الناس للاحتفال لتخليق المقياس يكون وقت الضحى، وإن يوم الزينة هو يوم وفاء النيل عند الفراعنة[٢] أو هو يوم النيروز.[٣]

ولكن طبقاً للقول بأن «لكل قاعدة شواذ» فأنه يوجد استثناء فى ذلك، ففى سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٩م كسر السد ليلاً وهذه هى المرة الوحيدة التى ذكرها المؤرخون التى حدث فيها ذلك، ويرجع سبب ذلك لأن السلطان الملك الناصر محمد بن قايتباى أراد أن يحضر الاحتفال بنفسه ولكن الامراء منعوه خوفاً من الفتنة فنزل ليلاً فى خواصه وفتح السد فأصبح الناس ليجدوا الماء فى الخلجان والبرك فتعجبوا لأن ذلك ما وقع فى الجاهلية ولا فى الاسلام وقد ضيع على الناس فرحتهم بيوم الوفاء وما كان يقع فيه من القصف والفرجة. وفى هذه الواقعة يقول الناصرى محمد بن قانصوه من صادق:

منذ السلطان قالوا ... الورى بالكسر جبر
كسر السد بليل ... فغدا للناس كسر[٤]

الاحتفال بوفاء النيل فى العصر العثمانى:

فى العصر العثمانى استمرت نفس المراسم الرسمية والشعبية والتى كانت تتم فى العصر المملوكى للاحتفال بتخليق المقياس وفتح سد الخليج، وقد رأس الاحتفال طوال ذلك العصر ولاة مصر أنفسهم نائبين عن السلاطين العثمانين فينزل الباشا (الوالى) ومعه الصناجق (حكام الأقاليم المصرية) وقاضى العسكر وكبراء الدولة ويذهبون إلى المقياس عندما يقارب النيل الوفاءويمكثون هناك قبل الوفاء أياما فى لهو ومتعه من مأكل ومشرب وطرب حتى يتم الوفاء ثم يعود الوالى ومن معه إلى الخليج فيأمر بفتحه ويعود إلى القلعة، وكان الشعب يشارك فى هذه الاحتفالات بالتجمع والتبهرج وإظهار الفرح والزينة.[٥]

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٧٤٨-٧٤٩. ، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣ ص ٣٦٩.
(٢) النويرى، نهاية الارب، جـ١، ص ٢٦٤، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٦٠. ، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٣٤٩، الكتبى، مباهج الفكر، جـ١، ق٢، ورقة ٨٦.
(٣) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٦٨.
(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٩٦-٣٩٧.
(٥) محمد كمال السيد، اسماء ومسميات، ص ٧٢.

وقد وصف لنا «ابن اياس» الاحتفال فى السنوات الأولى لغزو العثمانيين لمصر منذ سنة ٩٢٣هـ حتى ٩٢٨هـ، فذكر الاحتفال سنة ٩٢٣هـ قائلاً« وكان الذى فتح مصر فى ذلك اليوم يونس باشا نائب السلطنة، فلم يكن ليوم الوفاء بهجة مثل العادة وبطل ما كان يعمل فى مثل ذلك اليوم من الأسمطة التى كانت تصنع بالمقياس والمجامع الحلوى والمشنات الفاكهة التى كانت تفرق فى ذلك اليوم فنزل يونس باشا الخراقة السلطانية وتوجه إلى السد وفتحه على العادة. ولكن أين الثريا من يدى المتناول بالنسبة لما كان يعمل فى يوم الوفاء بمصر.[١]

وذلك الوصف يرجع بلا شك لحالة الحزن والأسى التى صارت عليها مصر عقب أشهر قليلة من الفتح العثمانى، وعاد الأمر كما كان أيام المماليك من البهجة والفرح فى السنوات التالية، فذكر عن سنة ٩٢٤هـ« . . . ونزل ملك الامراء (خاير بك) وتوجه إلى المقياس وخلق العمود ومد هناك مدة حافلة وحضر الأمراء العثمانية ثم نزل الخراقة وصحبته الامراء العثمانية وتوجه إلى السد وفتحه وكان يوماً مشهوداً وأوكب وهو طالع القلعة موكباً حافلاً»،[٢]

كما وصف ابن اياس الاحتفال سنة ٩٢٥هـ فقال « لما طلع ابن ابى الرداد واخبر ملك الامراء بوفاء النيل المبارك نزل من القلعة وتوجه إلى المقياس وخلق العمود ومد هناك مدة حافلة ثم قدموا له المركب الغراب الذى كان عمره السلطان الغورى فنزل فيه وتوجه إلى نحو السد الذى عند رأس المنشية ففتحه وأظهر التعاظم فى ذلك اليوم وفرق المجامع الحلوى والمشنات الفاكهة، وكان ذلك اليوم مشهوداً من كثرة المراكب والنفوط والطبول والزمور ثم ركب ملك الامراء (خاير بك) من هناك وتوجه إلى القلعة ثم توجه الأمير كمشبغا الوالى ففتح السد الذى عند قنطرة السد[٣]. وفتح سد القنطرة ورجع إلى داره وكان يوماً مشهوداً وقد عمت هذه الفرحة لكل مسلم وكافر وكانت فرحة عامة لسائر الناس».[٤]

وحدث نفس الشىء فى سنة ٩٢٦هـ[٥] وفى سنة ٩٢٧هـ[٦] وفى سنة٩٢٨هـ[٧].

وقد وصف لنا المؤرخ «ابن ابى السرور البكرى» صورة لحفلات الوفاء فى العصر العثمانى فقال « وأما فى الدولة العثمانية ـ أيدها الله تعالى ـ فيركب بيكلر بيكى مصر (ملك الامراء) فى

---

(١) بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٩٦.

(٢) بدائع الزهور، جـ٥، ص ٢٦٩.

(٣) نستنتج من ذلك انه كان هناك سدان الأول عند فم الخليج وهو الذى كان يتم فتحه بصفة رسمية والثانى عند قنطرة السد ويفتحه والى القاهرة والأهالى.

(٤) بدائع الزهور، جـ٥، ص ٣١٠.

(٥) نفسه، ص ٣٥١.

(٦) نفسه، ص ٤٠١.

(٧) نفسه، ص ٤٧٢.

وقت الصباح من القلعة وينزل إلى بولاق للمراكب التى أعدت له وللصناجق والأمراء تجاه الترسخاناة فينزل بها وتقلع المراكب التى هو بها وتقلع خلفه جميع السناجق بمراكبها والأمراء يضربون المدافع العديدة، ولايزال سائراً من نحو مصر العتيقة إلى المقياس بالروضة، وذلك حين يبقى لوفاء البحر دون العشرين إصبع، ويجلس بالمقياس المذكور إلى أن يفى البحر الستة عشر ذراعاً فإن رأى حطاً جلس بعد الوفاء اليوم واليومين ويجعلون الحراقات والعرايس النفيسه ويقع من القصف واللهو مالا يحصى. وفى يوم ارادة البكلر بيكى فتح السد يجعل سماطاً عظيماً قبل طلوع الشمس للصناجق والجاويشيه والمتفرقة وغيرهم من العساكر ويحضر عنده قاضى مصر آذ ذاك، وحين الفراغ من السماط يخلع على كاشف الجيزة « وعلى بن الخبيرى شيخ عربان الجيزة وعلى الصوباشى وعلى أمين الشون وعلى جنجى باش وعلى والى مصر القديمة وعلى والى بولاق وعلى أمير البحرين وعلى أمين الخضرة ثم يقوم هو وقاضى مصر إذ ذاك وجميع الصناجق فى المركب معه، ولا يزال سائراً وطبول الصناجق تضرب خلفه إلى أن يأتى السد فيفتحه ثم يصعد من على السد إلى القلعة ويكون يوماً مشهوداً»[1].

وقد حرص بعض الرحالة الذين زاروا مصر فى العصر العثمانى على وصف تلك الاحتفالات التى لفتت انظارهم، ومن أوائلهم الحسن بن الوزان المعروف بليو الافريقى (١٤٩٤ ـ ١٥٥٢م) الذى زار مصر فى السنين الأولى للفتح العثمانى لمصر فقال « . . . وتقام بالقاهرة حفلة كبرى فى الأيام الأولى لفيضان النيل يرتفع أثناءها ضجيج الصراخ والموسيقى حتى كأن المدينة تنقلب رأساً على عقب وتأخذ كل أسرة زورقاً تزينة بأرفع القماش وأزهى الزرابى، وتتزود بكمية وافرة من المؤن والحلويات ومشاعل من الشمع جميلة ويكون جميع السكان فى الزوارق يتسلون حسب امكاناتهم ويشارك السلطان نفسه فى الاحتفال مع أمرائه الكبار وضباطه فيذهب إلى قناة مسورة تدعى القناة الكبرى (يقصد الخليج) وهناك يتناول شاقورا ويشرع فى هدم الجدار (بقصد سد الخليج)، ويفعل كبار الشخصيات فعله حتى يتهدم جزء الجدار الذى كان يمنع وصول الماء فيتدفق النيل حالاً فى القناة بقوة كبيرة وينتشر من هناك إلى باقى القنوات بالضواحى والمدينة المسورة حتى ان القاهرة تكون ذلك اليوم شبيهه بالبندقية فيمكن الذهاب بالزوارق إلى جميع الاماكن المسكونة وكل أطراف مصر ويستمر الاحتفال سبعة أيام وسبع ليال بحيث أن التاجر أو الصانع ينفق كل ما ربحه أثناء السنة فى هذا الأسبوع على الطعام والحلويات والمشاعل والعطور والمغنيين، وهذا الحفل من بقايا حفلات قدماء المصريين»[2].

---

(١) النزهة الزهية (مخطوط)، ورقة ٦٧، ٦٨. قطف الأزهار من الخطط والآثار، ص ٨ب، ٩أ، على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ١٨، ص ٣٣ـ٣٤. ، المناوى، نهر النيل، ص ١٦٤ـ١٦٥.

(٢) وصف افريقيا، ص ٢١٤ـ٢١٥.

ونفس الوصف وصفة الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر فى القرنين ١٠ ، ١١هـ/ ١٦ ، ١٧م ، ومنهم «باليرن» Jean Palern الذى زار مصر سنة ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م الذى ذكر « أن الاحتفال بفتح الخليج من أهم الاحتفالات وأنه ارتبط بفيضان النيل ويحضره الباشا الذى يسير فى موكب مع كبار الشخصيات ويضرب الباشا بالفأس فى جدار الخليج فيتدفق الماء وتستمر الاحتفالات سبعة أيام»[١] ، وذكر مثل ذلك بيلون Pierre Belon de Mona الذى زار مصر فى الفترة ما بين ٩٥٤ ـ ٩٥٦هـ/ ١٥٤٧ ـ ١٥٤٩م [٢] أما كوبن Coppin الذى زار مصر مرتين الاولى بين سنتى ١٠٤٨ ـ ١٠٤٩هـ من آخر يناير ١٦٣٨ حتى يوليو ١٦٣٩م والثانية عام ١٠٥٣هـ/ ١٦٤٣م وعمل خلالها قنصلاً للفرنسيين فى دمياط ، فقال « تقام الاحتفالات فى جزيرة الروضة ويسهر سكان القاهرة ويتنزهون فى المراكب النيلية وهم يشعلون المصابيح وينشدون الأغانى ويتوافدون على الروضة الصناع والحواة « أصحاب جلا جلا» ويغطس الأطفال فى النيل وهم عرايا ، ويحرص المماليك على حضور الاحتفال فى مراكب كبيرة مزينة بالأعلام الملونة ومنهم من يقيم معسكراً على البر لاستقبال الزوار ، ولا يقتصر الاحتفالات على الروضة فقط وإنما تقام الاحتفالات فى الأزبكية حيث تمتلىء البركة بالمياه فتسير المراكب فيها»[٣] وسجل مثل تلك الانطباعات الرحالة والقناصل الفرنسيون فى القرن ١٢هـ/ ١٨م ومنهم بول لوكاس[٤]

ومن الجدير بالذكر هنا أن نذكر ان محمد باشا النشنجى الذى تولى على مصر فى المدة من ١٧ رمضان ١١٣٣هـ حتى ١٠ ذى الحجة ١١٣٨هـ الموافق من ١٢ يولية ١٧٢١ حتى ١٠ يولية ١٧٢٦م قد بنى كشكاً على حافة الخليج بدلاً من الخيمة التى كانت تعد للباشا فى ذلك المكان[٥] . كما حرص أصحاب الدور التى على جانبى الخليج على إقامة مناظر وأماكن خصصت للضيوف للاحتفال بها وتقديم الطعام والولائم أثناء وفاء النيل للضيوف سواء أكانوا رجال الدولة أو العامة[٦] .

---

(١) Palerne, (J), Le Voyage en Egypte 1581 Le Caire 1970, p. 52.

الهام ذهنى ، مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١م) ، ص ٨٩ ، ١٠٨ .

(٢) Belon, (P), Le Voyage en L'Egypte 1547, Le Caire 1969, P. 110.

(٣) Coppin. (J) Les Voyages de Jean Coppin 1639. Le Caire, 1971. pp. 74 - 78.

(٤) Lucas (P), Voyage du Sieur Paul Lucas au Levant Rouen 1772 Tome I pp 76 - 78.

الهام ذهنى ، مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢) ، ص ٣٢١ .

(٥) أحمد شلبى ، أوضح الاشارات ، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

(٦) الجبرتى ، عجائب الآثار ، جـ٣ ، ص ٢٧١ ، ٤٠٧ ، ٤٨٥ .

ومن الملاحظ ان فى بعض السنوات لم يتم عمل الموسم والمهرجان إلا فى أضيق الحدود بسبب القلاقل والفتن وانعدام النظام بالقاهرة آنذاك[١]

وفى اثناء وجود الحملة الفرنسية بمصر (١٢١٣ ـ ١٢١٦هـ/ ١٧٩٧ ـ ١٨٠١م) حاول الفرنسيون أن يتقربوا إلى المصريين بالمشاركة فى أعيادهم ومواسمهم واحتفالاتهم التى من أهمها مهرجان وفاء النيل، ولكن أغلب الشعب لم يشارك فى تلك الاحتفالات ولم يشترك سوى بعض الموظفين الرسميين والنصارى الشوام والقبط الأروام والافرنج وقليل جداً من الناس، بالرغم من مظاهر الاحتفال الضخمة التى عملها الفرنسيون فى السنوات الثلاثة التى قضوها بمصر[٢].

واستمر المهرجان يقام بانتظام فى عصر اسرة محمد على[٣]. وكان يسوده احياناً الفخامة وأحياناً التواضع حتى أهمل تماماً منذ منتصف هذا القرن ونسى الآن تماماً على المستويين الرسمى والشعبى وضاع احتفال بدأ منذ فجر التاريخ واستمر بضعة آلاف من السنين وسبحان الله الباقى الدائم الأزلى.

جـ ـ عيد الشهيد:

ارتبط بوفاء النيل فى العصر المملوكى مهرجانات وأعياد اخرى لا تقل فى مظاهر الاحتفال بها عن مهرجانات تخليق المقياس وكسر سد الخليج وبخاصة على المستوى الشعبى ومن هذه الأعياد عيد الشهيد وعيد النيروز... وغيرهما من الأعياد القبطية.

ولما كانت مصر تسودها أغلب الأحيان مشاعر المودة والتآخى والسلام، ويسود أبناءها وشائج الوحدة الوطنية بكافة عقائدهم ومللهم وطوائفهم ومكانتهم الاجتماعية فقد كان عيد الشهيد هذا عيداً قبطياً اتخذ طابعاً قومياً فى العصر المملوكى، وقد وصفه «المقريزى «بأنه» من أنزه فرج مصر»[٤].

---

(١) نفسه، جـ١، ص ٦٣، ٦٣٣، ٦٣٤، جـ٢، ص ٥٣٧، جـ٣، ص ٨٣، ١٣١.

(٢) الجبرتى، جـ٢، ص ٢٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٤٣٧.، جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٣١٧ـ٣٢٠.

(٣) نفسه، جـ١، ص ٥٠٣، ٥٣٨، ٥٤٣، ٥٤٩، ٥٥٣، ٥٨٠، ٦٣٣، جـ٢، ص٢٩، ٥٨، ٨١، ٨٧، ١٦٦، ٢٠٠، ٣٠٢، ٤٣٧، ٤٨٥، ٤٩٧، ٥٣٧، ٦٠٠، جـ٣، ص٢٧، ٨٣، ١٣١، ٢١٠، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٧١، ٣٠٦، ٣٣٢، ٣٥٢، ٤٦٥، ٤٨٥، ٥١٥، ٥٦٤، ٥٨٠، ٦٠٣، ٦١٤.
ادوارد وليم لين، المصريون المحدثون ـ شمائلهم وعاداتهم»، ترجمة عدلى طاهر نور، ط٢، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٤١٥ـ٤٢١. كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، جـ١، ص ١١٨ـ١١٩. على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ١٨، ص ٣٤.، أحمد زكى، مهرجان وفاءالنيل وخطأ المحكمة الشرعية العليا، مقالة بمجلة المقتطف، ديسمبر ١٩٢٣هـ، ص ٣٢٩ـ٣٣٤.

(٤) الخطط، جـ١، ص ٦٨.

اما عن تاريخ بدء الاحتفال بهذا العيد المصرى الخالص فلم نعلم بالضبط متى بدأ أما عن كونه مصرياً خالصاً فيرجع السبب فى إقامته الى أن اقباط مصر كانوا يزعمون أن نهرالنيل لا يزيد الا بعد غسل إصبع أحد القديسين الشهداء فى مائه، وكان الإصبع محفوظاً فى تابوت خشبى عليه قفل من الحديد فى كنيسة على النيل فى منطقة شبرا الخيمة[١].

وكان الاحتفال يتم فى اليوم الثامن من بشنس القبطى الموافق لشهر مايو من كل عام وكان يمتد أحياناً ليومين أو لثلاثة ايام[٢].

وكان الاحتفال يتم على صفحة النيل وعلى شواطئه وفى جزره - وخصوصاً جزيرة الوراق لمواجهتها لشبرا الخيمة التى بها الكنيسة التى تحوى الاصبع - حيث يقام مهرجان كبير لا يقل فى عظمته عن مهرجان تخليق المقياس وكسر سد الخليج.

وفى يوم الاحتفال يجتمع النصارى من جميع القرى ويشاركهم بعض المسلمين أيضاً وأغلب عامة أهل القاهرة بكافة طبقاتهم وطوائفهم فيمتلىء النيل بالقوارب، وينصبون الخيام على شاطىء بحر النيل بأعداد كبيرة وفى الجزائر، وكان أعيان القبط من المباشرين ينزلون فى المراكب وقت القاء ذلك الاصبع فى البحر وكانت الشموع توقد فى المراكب مع القناديل حتى يضيء منها البر، وتحرق النفوط فى تلك الليلة حتى تدهش العقول من رؤية ذلك[٣]، وكان الفرسان يجتمعون ويرقصون بخيولهم على إيقاعات الطبول وأنغام الزمور «... ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولارب معلوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق إلا وخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم»[٤].

لأجل ذلك فقد العيد مدلولة الدينى وانقلب إلى معرض لكل أنواع الفجور وصحبته

---

(١) نفسه، ص ٦٩.

السخاوى، التبر المسبوك، ص ١٢، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ٢٠٢.، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٢٩٩، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٥٦٥.

* يعتقد «على باشا مبارك» فى خططه التوفيقية جـ١٨، ص ٣١، أن الاحتفال بعيد الشهيد هذا هو تطور للاحتفال بعروس النيل وهى العادة التى أبطلها عمرو بن العاص فاتح مصر بأمر الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

* ولكن من الجدير بالذكر أن نقول أن قصة عروس النيل هذه قصة مختلقة وقد دحضها الكثير من الكتاب.

(٢) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٦٨، السلوك، جـ٢، ص ٤٥١ - ٤٥٢.، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ٢٠٣.، السخاوى، التبر المسبوك، ص ١٢.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق ١، ص ٥٦٦.

(٤) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٦٩، السيوطى، كوكب الروضة، ص ١٣١.

مظاهر الفساد والانحلال والفوضى والعربدة، إذ ترتكب المعاصى نهاراً جهاراً، وتثور الفتن وتقع بعض حوادث القتل، ويباع من الخمر فى ذلك اليوم ما ينيف على مائة ألف درهم فضة عنها خمسة آلاف دينار ذهباً حتى قيل أن أحد الباعة باع فى يوم واحد باثنى عشر ألف درهم فضة من الخمر، لذلك فإن فلاحى شبرا كانوا يعتمدون على مبيعاتهم من الخمور فى هذا العيد للوفاء بما عليهم من الخراج مما يبين مقدار ما يراق من الخمر للمتفرجين والمتنزهين[١]

وقد تعرض هذا العيد للإلغاء فى سنة ٧٠٢هـ على يد الامير بيبرس الجاشنكير وكان استادارا للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان متحكماً فى المملكة حينئذ هو والامير سلار نائب السلطنة، وكان لبيبرس دور كبير فى التعرض لبعض مظاهر الفساد والانحلال فى ذلك الوقت، فأمر بالغاء عيد الشهيد وأن لا يرمى إصبع فى النيل ولا يعمل له عيد، وندب الحجاب ووالى القاهرة لمنع الناس من الاجتماع بشبرا على عادتهم، وخرج البريد إلى سائر أعمال مصر ومعهم الكتب إلى الولاة بإجهار النداء وإعلانه فى الاقاليم بأن لا يخرج أحد من النصارى ولا يحضر لعمل عيد الشهيد، فشق ذلك على أقباط مصر وحاولوا إعادته فأوعدوا بيبرس بأموال عظيمة وخوفوه من عدم طلوع النيل وانكسار الخراج ولكن بيبرس صمم على رأيه فتم الغاء العيد[٢].

وظل الاحتفال بالعيد معطلاً حتى أعاده مرة أخرى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد ست وثلاثين سنة من الغائه أى سنة ٧٣٨هـ[٣] وأرجع المؤرخون السبب فى إعادة العيد إلى أن السلطان الناصر محمد أراد أن يعوض الأميرين يلبغا اليحياوى والطنبغا الماردانى[٤] عن رغبتها فى الغياب مدة للسرح للصيد فى الإسكندرية ونواحيها، ولما كان السلطان لا يطيق فراقهما لذا أمر باعادة الاحتفال بعيد الشهيد مرة أخرى كى لا يبتعدا عن القاهرة[٥].

---

(١) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٦٩.

(٢) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٦٩.، السلوك، جـ١. ص ٩٤١-٩٤٢.، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٨، ص ٢٠٢-٢٠٣.، ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص ٥٤.

(٣) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٦٩، السلوك، جـ٢، ص ٤٥١.

(٤) ذكر المقريزى فى السلوك، جـ٢، ص ٤٥١، أن الأميرين هما ملكتمر الحجازى ويلبغا اليحياوى، بينما ذكر فى الخطط، جـ١، ص ٦٩، انهما الطنبغا الماردانى ويلبغا اليحياوى.

(٥) قال المقريزى فى شأن هذا الموضوع «.. طلب الأمير يلبغا اليحياوى والأمير الطنبغا الماردانى من السلطان أن يخرجا إلى الصيد ويغيبا مدة فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامة بهما وتهتكه فى محبتهما وأراد صرفهما عن السفر فقال لهما نحن نعيد عمل عيد الشهيد فيكون تفرجكما عليه أنزه من خروجكما إلى الصيد وكان قد قرب أوان وقت عيد الشهيد فرضياً منه بذلك وأشيع فى الاقليم إعادة عمل عيد الشهيد، فلما كان اليوم الذى كانت العادة بعمله فيه ركب الأمراء النيل فى الشخاتير بغير حراريق واجتمع الناس من كل جهة =

وقد أبطل الاحتفال بالعيد نهائياً سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م أثناء سلطنة الملك الصالح بن محمد قلاوون على يد الأمير صرغتمش أحد الامراء الكبار المتحكمين فى المملكة آنذاك، فهدمت الكنيسة فى أواخر رجب وأحرق إلاصبع بين يدى السلطان وزروا رماده فى النهر، وكان ذلك ضمن حملات المصادرة والاضطهاد التى تعرضت لها الكنائس والديورة وكذلك الأوقاف الموقوفة عليها فى تلك السنة[١].

د ـ عيد النيروز:

عيد النيروز[٢] عيد قبطى اتخذ طابعاً قومياً فى ظل الدول الاسلامية المتعاقبة فى مصر.

وعيد النيروز هو عيد رأس السنة القبطية يحتفل به فى أول يوم من شهر توت القبطى الموافق ليوم ٢٣ اغسطس الميلادى[٣]، وأغلب الظن أن هذا العيد متوارث عن قدماء المصريين لأنه ارتبط بالنيل ارتباطاً كبيراً لأن موعد الاحتفال به يكون عادة وقت اكتمال فيضان النيل، وقد ارتبط النيروز فى العصر المملوكى بأماكن النزهة مثل البرك والخلجان وغيرها.

وكان لهذا العيد رونق كبير فى زمن الدولة الفاطمية، واستمرت مظاهره فى الدولتين التاليتين لها «الأيوبية والمملوكية»، وقد حرص المسلمون على مشاركة الأقباط فى الاحتفال بذلك العيد نظراً لما كان بينهم من مودة ولسبب آخر هو ارتباط العيد باكتمال فيضان النيل ـ روح المصريين جميعاً ـ لذا اعتبر هذا اليوم بمثابة عطلة عامة تغلق فيها الأسواق وتعطل فيها المدارس[٣].

ومن التقاليد المتوارثة التى سادت يوم العيد واستمرت فى العصر المملوكى هى إيقاد النيران

= وبرز أرباب الغناء وأصحاب اللهو والخلاعة فركبوا النيل وتجاهروا بما كانت عادتهم المجاهرة به من أنواع المنكرات وتوسع الأمراء فى تنوع الأطعمة والحلاوات وغيرها توسعاً خرجوا فيه عن الحد فى الكثرة البالغة وعم الناس منهم ما لا يمكن وصفه لكثرته واستمروا على ذلك ثلاثة أيام..».
الخطط. جـ٢، ص ٦٩. انظر أيضاً: السلوك، جـ٢، ص ٤٥١ـ٤٥٢.

(١) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٦٩ـ٧٠، السلوك، جـ٢، ص ٤٥١ـ٤٥٢، ٩٢٦.، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق ١، ص ٥٦٥ـ٥٦٧.

(٢) كلمة النيروز كلمة فارسية معناها اليوم الجديد، وكان الفرس يعتبرونه من أهم أعيادهم وكان يحتفلون به فى يوم الاعتدال الربيعى أى يوم ٢١ مارس، وقد عرفت شعوب كثيرة ودول عديدة عيد النيروز وكل منهم احتفل به حسب التقويم الخاص به. انظر: المقريزى، الخطط، ج١، ص ٢٦٨.

(٣) المقريزى، الخطط، ج١، ص ٢٦٧.

(٤) ابن الحاج، المدخل، جـ٢، ص ٤٩، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٣٦٣.، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٩٣.

والتراش بالماء والخمر فى الشوارع والطرقات وفوق صفحة النيل والبرك والخلجان

وسائر أماكن النزهة، وكان البعض أيضاً يقفون فى الطرقات ويتراجمون بالبيض ويتضاربون بأنطاع الجلود والأخفاف والعمائم، وكان بعض كبار القوم يفعلون مثل ذلك فى بساتينهم وداخل بيوتهم[1].

ومن التقاليد المتوارثة أيضاً والتى كانت سائدة فى العصر الفاطمى واستمرت فى العصر المملوكى موكب (كرنفال) أمير النيروز الذى اتسم بالهرج والخفة، فقد كان بعض العامة يولون عليهم شخصاً منهم يسمونه أمير النيروز له صفات جسمانية معينة فقد كان قوى الطباع ويغيرون صورته وخلقته إذ يدهن وجهه بجير أو دقيق ويجعلون له لحية مستعارة من فروة أو غيرها ويضيعون على رأسه طرطوراً طويلاً من الخوص ويركبونه حماراً وهو شبه عريان يستر بعض جسمه بثوب أحمر أو اصفر ليشهروه بذلك، ويجعلون موله الجريد الأخضر وشماريخ البلح وبيده شىء يشبه الدفتر كأنه يحاسب الناس، ثم يطوفون أزقة المدينة وشوارعها على البيوت والأسواق، فيقف على باب كل فرد سواء من الأكابر أو غير الاكابر ويكتب عليه إيصالاً مرابطين أمام داره حتى يأخذوا ما فرضوه عليه وهم فى كل ذلك يحتمون بالنيروز ويقولون «ليس فيه حرج ولا تقع فيه أحكام»[2].

ويبدو أن ذلك اليوم اعتبر بمثابة راحة أو عطلة عامة يتحرر الناس فيها من قيود حياتهم اليومية وتقاليدهم بما فى ذلك سطوة القانون فلم يكن الوالى يحكم لأحد مما ينالهم الضرر من جراء الجرائم والحوادث التى كانت تحدث فى يوم النيروز.[3]

ونظراً لما ساد مظاهر الاحتفال بهذا العيد من أخطار ومفاسد الخروج عن نطاق المعقول[4]، فإن بعض الحكام حاولوا الغاء الاحتفال أو فرض العقوبات على بعض من

---

(١) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٦٩، السلوك، جـ١، ص ١٣٦ ـ ١٣٧، ابن الحاج، المدخل، جـ٢، ص ٤٩. وقال شعراء العصر فى ذلك:

بدارى رجا للمجون ترجّلت ... عمائهم عن هامهم والطيالس
فالرياح مازرّت عليه جيوبها ... وللماء ما دارت عليه القلانس
مساحب من جَرّ الزقاق على القفا ... وصفع انطاع جَنِىّ ويابس

ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٣٦٤.

(٢) ابن الحاج، المدخل، جـ٢، ص ٥٢ ـ ٥٣. ، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٦٩، ٤٩٣. ، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ ـ ٣٦٤. ، نزهة الأم (مخطوط)، ص ٢٢٥.

(٣) قاسم عبده، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص ١١١.

(٤) كانت مظاهر الفساد والفجور والفوضى يشتى أشكالها تصحب الاحتفال بهذا العيد فقد ذكر «ابن الحاج» «أن الخمر يشرب جهاراً والنساء يلعبن فى بيوتهن مختلطين مع الرجال والشبان فيرش بعضهم بعضاً =

يشترك فى تلك المظاهر الفاسدة، فنرى على سبيل المثال أن الامير الكبير برقوق (قبل أن يلى السلطنة) وهو المتحكم فى الدولة آنذاك قد أبطل كثيراً من مظاهر الاحتفال وعاقب البعض بسبب ذلك وكان ذلك سنة ٧٨٢ هـ/ ١٣٨٠م، وفى اثناء سلطنته رسم فى أواخر شعبان ٧٨٧هـ بإبطال ما كان يعمل فى يوم النيروز « . . . فانكف الناس عن اللعب فى القاهرة وصاروا يعملون شيئاً من ذلك فى الخلجان والبرك ونحوها من مواضع النزهة بعد ما كانت أسواق القاهرة تتعطل يوم نيروز من البيع والشراء ويتعاطى الناس من اللهو واللعب ما يخرجون عن حد الحياء والحشمة إلى الغاية من الفجور والعهور وقلما انقضى يوم نوروز إلا وقتل فيه قتيل أو اكثر»[١]

ولكننا نجد السلطان الناصر فرج بن برقوق قد أعاد الاحتفال بالعيد مرة أخرى ولكن مظاهر هذاالاحتفال قد تواضعت إلى حد كبير بسبب الأزمات التى توالت على مصر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، فقد ذكر « المقريزى» بهذا الخصوص « . . . لم يبق الآن للناس من الفراغ ما يقتضى ذلك ولا من الرفة والبطر ما يوجب لهم عمله». [٢]

وقد ارتبطت بالاحتفال بعيد النيروز بعض الأطعمة والحلوى التى كان الناس يحرصون على توفيرها فى هذا اليوم حتى صارت من لوازم ذلك الاحتفال، وربما نشأت المشاكل بسببها داخل البيوت، ومن هذه الاطعمة والحلوى الزلابية والهريسة التى كانت بعض الناس يحضرون الصانع ليبيت عندهم لتجهيزها قبل طلوع النهار، وفى هذا العيد كان المصريون جميعاً يتهادون بهذه الحلوى كذلك جرت العادة أن تؤكل فى هذا اليوم أنواع معينة من الفواكه مثل البطيخ والخوخ والبلح . . . وغير ذلك مما تلزمه النساء لأزواجهن. [٣]

= بالماء دون أن تستحى الجارة من الجار أو من ابن العم أو من الصهر أو من أصدقاء زوجها وإذا ضاقت بهم المنازل خرجوا إلى البرك والخلجان وغيرها من أماكن النزهة حيث يصل بهم الأمر إلى نزع ثيابهم فيصبح أكثرهم عرايا فى حين يقنع المحتشم أو المحتشمة منهم بقميص رقيق». ، المدخل، جـ٢، ص ٥١.

* وقد ذكر ابن اياس مثل ذلك، انظر: بدائع الزهور، جـ، ق ٢، ص ٣٦٤.

(١) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٦٩، السلوك، جـ٣، ص ٣٩٤. ، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٢، ص ٤١٩-٤٢٠. ، السيوطى، كوكب الروضة، ص ١٩٥-١٩٦. ، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق ٢، ص ٣٦٣، ٣٦٥.

(٢) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٦٩.

(٣) نفسه، ص ٢٦٨-٢٦٩، ٤٩٣. ، ابن الحاج، المدخل، جـ٢، ص ٤٨-٤٩. ، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ٣٦٤-٣٦٥.

هـ ـ الاعياد القبطية الأخرى :

(١) عيد الغطاس :

كان هذا الاحتفال من الاحتفالات الكبيرة زمن الدولة الإخشيدية والدولة الفاطمية، إلا أن كثيراً من مظاهر الاحتفال قد تراجعت زمن المماليك وربما ألغى الاحتفال كلية.

وكان الاحتفال يتم فى اليوم الحادى عشر من طوبة، الموافق التاسع عشر من شهر يناير الميلادى، وبالرغم من أن هذا العيد متصل بالعقيدة المسيحية إلا أن بعض المسلمين شاركوا فيه واتخذوه موسماً، وكانت صفحة النيل وشاطئاه وجزيرة الروضة مسرحاً للاحتفال وبخاصة أمام المقياس حيث تنصب الخيام ويمتلىء البحر بالمراكب المزينة وتشعل الشموع والقناديل وتجتمع أرباب المغانى والآلات وأرباب الملاهى من كل مكان ويخرج الناس فى ذلك عن الحد فى اللهو والقصف، وكانوا يغطسون بعد العشاء قبالة المقياس ويزعمون أن من يغطس فى تلك الليلة لا يضعف فى تلك السنة[١].

(٢) عيد الزيتونة :

شارك المسلمين أيضاً الأقباط فى هذا العيد ويخرجون فيه إلى بئر البلسم بالمطرية ويغتسلون فيه حيث يعتقد أن العذراء مريم غسلت فيه ثياب السيد المسيح عليه السلام،[٢]

(٣) سبت النور :

كان الناس يخرجون فيه إلى شاطىء النيل.[٣]

و ـ مولد اسماعيل الامبابى :

من الاحتفالات الكبيرة التى ارتبطت بالمتنزهات (بالنيل والجزر بوجه خاص)، الاحتفالات بمولد الشيخ اسماعيل الامبابى[٤].

---

(١) المسعودى، مروج الذهب، جـ٢، ص ٣٦٤. ، ابن الحاج، المدخل، جـ٢، ص ٥٥٩ ، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٦٥، ٤٩٤. ، السيوطى، كوكب الروضة ص ١٦٥. ، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق ١، ص ٢١٢ـ٢١٣.

(٢) عن أصل هذا العيد، انظر: المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٦٤. ، ابن الحاج، المدخل، جـ٢، ص ٥٩ـ ٦٠. ، ابن الوردى، خريدة العجائب، ص ٦٤ـ٦٦.

(٣) ابن الحاج، المدخل، جـ١، ص ٥٧.

(٤) هو اسماعيل بن يوسف الامبابى الشيخ المعتقد المشهور، قال عنه «المقريزى» انه أحد من تشفيت به العامة إذا مسها الضر وتجأر إليه ويزعمون أن سره يجلب لهم النفع ويدفع عنهم السوء والمكروه، عادة سوء فى سفهاء أهل مصر، عافانا الله منها»، كان أبوه أحد الفقراء السطوحية وله سمعة وشهرة بناحية انبوبة =

وكان مكان الاحتفال على صفحة نهر النيل فى منطقة امبابة على النيل حيث ضريح اسماعيل الامبابى[1] وما يواجهها من بولاق والجزيرة الوسطى.

وكان الشيخ اسماعيل الامبابى يحتفل فى كل عام بمولد النبى يوم ١٢ ربيع الاول[2]، وبعد وفاته سنة ٧٩٠هـ عمل الناس له مولداً فى كل عام يوم ١١ من شهر صفر[3]، وكان أهل القاهرة والجيزة والنواحى يحتفلون به احتفالاً كبيراً إذ صار عندهم هذا الوقت من جملة التنزه ويتواعدون عليه من قبل عمله بأيام ويتوجهون إليه أفواجاً ويستأجرون المراكب للنزهة وينصبون الخيام التى يصل عددها إلى ٥٠٠ خيمة فى الجزيرة المواجهة لبولاق وعلى شاطىء النيل عند بولاق وامبابة، ويوقدون حراقات نفط هائلة، وكانوا يبيتون عدة أيام وتقام الأسواق

= (امبابة) من بر الجيزة غرب القاهرة وله بها زاوية فنشأ اسماعيل واشتغل بالفقه على مذهب الشافعى رحمه الله، وأقبل الناس لزيارته بعد موت أبيه وتبركوا به وصار يعمل المولد النبوى فى كل سنة فينتابه الناس من الأقطار وترحل إليه من الأطراف وقد توفى الشيخ آخر شعبان سنة تسعين وسبعمائة ودفن بزاويته.

وقال «المقريزى» عنه أيضاً «وقد اجتمعت به فلم أر فيه ما يقتضى الذم ولا المدح سوى أنه كان يمد يده لمن يأتيه حتى يقبلها وظهر لى منه انه حريص على الرياسة غفر الله له». وقد أثنى عليه «ابن تغرى بردى».

انظر: المقريزى، درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمد كمال الدين، نشر عالم الكتب، القاهرة، سنة ١٩٩٢م، جـ٢، ص ٥٠١ـ٥٠٢.، ابن حجر، انباءالغمر، جـ١، ص ٣٥٧.، الدرر الكامنة، جـ١، ص ٤٥٧.، ابن تغرى بردى النجوم، جـ١١، ص ٣١٤.، ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص ١٨٠.، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٣٩١.

(١) ضريح إسماعيل الامبابى عبارة عن قبة ملحقة بالركن الشرقى من مسجده، وقد جددت وزارة الأوقاف الآن الضريح والمسجد معاً تجديداً شاملاً والأثر الباقى القديم من المسجد عبارة عن باب بالواجهة الشمالية الشرقية وفى نفس الواجهة مئذنة تعود للعصر العثمانى، والجامع والقبة كانا فى الأصل زاوية لوالد المترجم. ويقع الجامع فى شارع المحطة حيث يطل على محطة سكك حديد امبابة بواجهته الشمالية الشرقية، وهو على بعد ١٥٠ متراً غرب النيل، غرب مركز وقسم شرطة امبابة بشارع النيل.

(٢) عاب المقريزى ما كان يتم يوم الاحتفال بالمولد النبوى هناك فقال «... وصار يعمل المولد النبوى فى كل سنة فينتابه الناس من الأقطار وترحل إليه من الأطراف ويخرج بياض أهل مصر والقاهرة إليه وتضرب بظاهر زاويته الخيم وتعقد الأسواق وتجتمع من النسوان والشبان خلق كثير فأذكر أنه عمل المولد على عادته فى شهر ربيع الأول من سنة تسعين وسبعمائة فهرع الناس لحضور المجتمع حتى غص الفضاء بكثرة العالم وتنوعوا تلك الليلة فى الفسق لكثرة اختلاط النسوان والمردان بأهل الخلاعة فتواتر الخبر أنه وجد فى صبيحة تلك الليلة من جرار الخمر التى شربت بالليل فوق الخمسين فارغة ملقاة حول الزاوية فى المزارع وافتضت تلك الليلة عدة أبكار وأوقدت شموع بمال كبير فبعث الله يوم الأحد بكرة صباح المولد ـ المذكور ـ قاصفاً من الريح كدرت على من كان هناك ونعت فى وجوههم التراب واقتلعت الخيم ولم يقدر أحد على ركوب النيل ولم يعمل بعدها مولد فإن الشيخ مات آخر شعبان ودفن بزاويته. انظر: المقريزى، درر العقود، جـ٢، ص ٥٠١ـ٥٠٢.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ١١٤، ١٣٢، ١٥٢، ١٨٢، ٢١٤، ٣٧٥.

بكافة البضائع للمحتفلين، وكانت الناس تخرج فى القصف والفرجة فى هذا المولد عن الحد[١]

وكان بعض السلاطين يحتفلون بهذا المولد مثل السلطان الملك الناصر محمد بن قايتباى[٢].

وقد استمر الاحتفال بمولد اسماعيل الامبابى فى العصر العثمانى ولا يزال للآن يسوده مظاهر احتفال كبيرة من كل عام.

ثالثاً: ارتباط المتنزهات ببعض الامراض الاجتماعية ورد الفعل المضاد لها

ارتبط بمتنزهات القاهرة بعض الأمراض الاجتماعية التى كانت سائدة فى العصرين المملوكى والعثمانى، بل أن بعض المتنزهات كالبرك والخلجان كانت عاملاً هاماً وسبباً رئيسا فى تفشى وانتشار تلك الأمراض انتشاراً كبيراً بين العامة والخاصة.

والأمراض الاجتماعية التى سادت آنذاك كانت نوعين، أولهما وهو الذى ارتبط بالمتنزهات بوجه خاص هوا لفساد الخلقى مثل الزنا واللواط والشذوذ الجنسى وتعاطى الحشيش والمخدرات ومعاقرة الخمور، وثانيهما هو المعتقدات الباطلة مثل الاعتقاد فى قدرة الشيوخ والأولياء والتطير والتشاؤم والحسد والتعاويذ وأيام السعد والنحس والاعتقاد فى الجن والتنجيم والكيمياء[٣].

هذا فضلاً عن التصرفات الخاطئة التى سادت بين المتنزهين والتى تتنافى مع تعاليم الدين مثل المبالغة فى الاسراف ومظاهر الترف الزائدة وغير ذلك.

وكانت تلك الأمراض والسلوكيات الأخلاقية الخاطئة المرتبطة بالمتنزهات متوارثة منذ زمن، وحاول بعض الحكام تقويمها، ففى العصر الفاطمى كانت الناس تتجاهر بالمنكرات من غير نكر عليهم[٤]، ولكن هناك بعض المحاولات القليلة للردع مثل ما حدث سنة ٤٠١هـ حين منع الحاكم بأمر الله من الركوب فى المراكب بالخليج وسد أبواب القاهرة التى تلى الخليج وأبواب الدور التى هناك والطاقات المطلة عليه[٥].

---

(١) نفسه.، وابن تغرى بردى، جـ١٤، ص ٣١٤-٣١٥.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٨٩.

(٣) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٢٧.

(٤) المقريزى، السلوك، جـ١، ص ١١٩، ١٤٢.

(٥) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٤، ١٤٣.

وقال القاضى الفاضل فى متجددات حوادث سنة ٥٩٤هـ ونهى عن ركوب المتفرجين فى المراكب فى الخليج وعن إظهار المنكر وعن ركوب النساءمع الرجال وعلق جماعة من رؤساء المراكب بأيديهم قال وفى يوم الاربعاء تاسع عشر رمضان ظهر فى هذه المدة من المنكرات ما لم يعهد مصر فى وقت من الأوقات ومن الفواحش ما خرج من الدور إلى الطرقات وجرى الماء فى الخليج بنعمة الله تعالى بعد القنوط ووقوف الزيادة فى الذراع السادس عشر فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة فى مراكب نهار شهر رمضان ومعهم النساء الفواجر وبأيديهم المزاهر يضربن بهن وتسمع أصواتهن ووجوههن مكشوفة وحرفاؤهن من الرجال معهن فى المراكب ولا يمنعون عنهن الأيدى ولا الأبصار ولا يخافون من أمير ولا مأمور شيئاً من أسباب الإنكار وتوقع أهل المراقبة ما يتلو هذا الخطب من المعاقبة»[١].

ويحدثنا «ابن سعيد» الذى زار مصر زمن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب عن الخليج فيقول «. . . فرأيت فيه من ذلك العجائب وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشراب وذلك فى بعض الأحيان وهو ضيق وعليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة ومعالم الطرب والتهكم والمجانة حتى أن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب وللسرج فى جانبية بالليل منظر فتان، وكثيراً ما يتفرج فيه أهل الستر، وأقول مخاطباً أحد الرؤساء وقد استدعانى للركوب فيه نهاراً:

لاتركبن فى خليج مصـــر ... إلا إذا يســـدل الظـــلام

فقد علمـــت الذى علـيه ... من عالم كلهم طغام[٢]

وقد انتشرت تلك الامراض الاجتماعية والخلقية بين جميع الطبقات حكاماً ومحكومين من أهل الدنيا والدين على الرغم مما كانت عليه الدولة من أمور تبدو وكأنها تعمل للصلاح والتقوى والتدين فى ذلك الوقت نظراً لما عمد اليه السلاطين والأمراء من إقامة المنشآت الدينية الفخمة والرغبة البالغة فى إحياء شعائر الدين ولكن ذلك كان مظهراً خارجياً يخفى وراءه انحلالا خلقياً بعيد الغور وأمراضاً متوطنة خبيثة تثير الاشمئزاز والنفور[٣].

وعلى أيه حال لم تنفرد مصر عن غيرها من البلاد الاسلامية بتلك الامراض الاجتماعية بل إنها سادت فى معظم البلاد آنذاك[٤].

---

(١) المقريزى، الخطط، ج٢، ص١٤٣.

(٢) ابن سعيد، الغرب، ص٣١-٣٢. ، المقريزى، الخطط، ج٢، س١٤٤.

(٣) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص٢٢٥.

(٤) ابن حجر، انباء الغمر، جـ١، ص٦٠٢. ، سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص٢٢٥.

ومن الامراض الاجتماعية التى سادت فى العصرين المملوكى والعثمانى الزنا والبغاء[١] الذى كان معترفا به من قبل الدولة، وكانت تنتشر بالمدينة وحول البرك والخلجان وعلى شاطىء النيل بشكل خاص بيوت ومواخير بكل منها ضامنة تشرف على محترفات البغاء الذى كان منتشراً آنذاك، كما ابتلى المجتمع ايضاً فى عصر المماليك بتفشى الشذوذ الجنسى واللواط[٢]

وكان على امتداد النيل بعض الدور التى اتخذت فى أمور اللهو والفسق وأغراض منافيه للآداب مثال لذلك كان على شاطىء النيل ببولاق بيت كان فى أصله لابن عز الفراش واشتراها بعد موته تاج الدين الأزرق ناظر الجهات فعرفت «بدار الفاسقين» ورأت هذه الدار من اللهو والفسق ما يتجاوز الحد» إلى ان اشتراها الأمير عز الدين ايدمر الخطيرى وعمرها جامعاً سنة ٧٣٧هـ وسمى جامع التوبة[٣]

وكان المتنزهون ينصبون الأخصاص على النيل وعلى شواطىء البرك والخلجان ويظهرون من المنكرات من الخمور ونحوها من المسكرات واختلاط النساء والرجال من غير استتار.[٤]

وعبر «المقريزى» كثيراً عن سخطه عن مجتمع المتنزهات وما كان يسودها من مظاهر تنافى الخلق والدين، من ذلك ما كتبه عن الجسر الذى بين بركة الرطلى وبين الخليج الناصرى

---

(١) كانت الدعارة من المهن المعترف بها فى الدولة المملوكية لانها كانت تفرض عليها ضريبة معينة كانت تدر دخلاً كبيراً للخزانة السلطانية، فقد كان على كل من ترغب فى احتراف الدعارة ان تذهب إلى «ضامنة المغانى» والغريب فى الأمر أن صاحبة هذه الوظيفة كانت بمثابة النقيب لمن يحترف الدعارة، ولكنها كانت مسئولة أيضاً عن حرفة نسائية أخرى مختلفة بل ومتناقضة مع هذه الحرفة إذ كانت الضامنة هى المسئولة عن المغنيات والواعظات والقارئات والندابات فضلاً عن مسئوليتها عن بنات الليل، وقد تميزن محترفات الدعارة فى العصر المملوكى بملابس خاصة بهن، ويقول «المقريزى» فى سياق حديثة عن «سوق الشماعين» إن حوانيت هذا السوق كانت تظل مفتوحة طوال الليل وكان يجلس به بالليل بغايا يقال لهم زعيرات الشماعين لهن سيمات يعرفن بها وزى يتميزون به وهو لبس الملاءات والطرح وكن يعانين الزعارة ويقفن مع الرجال المشالقين فى وقت لعبهم وفيهن من تحمل الحديد معهم، وكانت هناك أماكن خاصة بالبغايا فى المدن والريف. وأحياناً ما كان بعض السلاطين يحارب البغاء مثل السلطان الظاهر بيبرس، والناصر محمد والأشرف برسباى والظاهر جقمق، ولكن سرعان ما يعود الامر إلى ما كان عليه سابقاً واستمر الحال قائماً فى العصر العثمانى، انظر :

سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص٢٢٧.

قاسم عبده، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص١٣٩

(٢) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص٢٢٨.

(٣) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص١٢، المقريزى، السلوك، جـ١، ص٤٢٣.

(٤) المقريزى، السلوك، ج٤، ص٣٥٨.

« . . . وتجتمع العامة تحت مناظر الجسر وتمر بحافة الخليج للنزهة فكثر اغتباط غوغاء الناس وفساقهم بهذا الجسر إلى اليوم وهو من أنزه فرج القاهرة لولا ما عرف به من القاذورات الفاحشة» .(١)

وأيضاً يرسم لنا «المقريزى» صورة حية لمجتمع البركة فى العصر المملوكى حين يتحدث عن ربع المشانيق على الجسر، وتبدو المبالغة واضحة جلية فى كلام المقريزى إلا اننا يهمنا منها مغزاه إذ يقول « . . . وكان تحته (أى ربع المشانيق) رصيف يجلس عليه الناس للفرجة وإنما سمى ربع المشانيق لأن المار تحته على الرصيف لا يشتغل بالنظر إلا إلى الطيقان لما فيها من النساء الحسان، ومما وقع لشخص أنه رص الف دينار من أول الرصيف إلى آخره فبقيت ثمانية أيام وأتى الرجل فوجد الالف دينار ولم ينقص منها شىء لاشتغال الناس بالنظر إلى النساء المشرفات من الطيقان» .(٢)

ومن أمثلة البيوت على شواطىء الخلجان ربع على الخليج الناصرى يسمى ربع الزيتى بجوار قنطرة الحاجب «وكان يشتمل على عدة مساكن ينزل بها أهل الخلاعة للقصف فإنه كان يشرف من جهاته الأربع على رياض وبساتين ففى شرقيه غيط الزيتى» وقد خرب أيام المقريزى وصار موضعه بركة ماء، «وفى غربيه غيط الحاجب بيبرس «ويقول المقريزى» «وأدركته عامراً وهو اليوم مزارع بعدما كان له باب كبير بجانبه حوض ماء للسبيل وعليه سياج من طين دائر به ومن قبلى هذا الربع الخليج وقنطرة الحاجب والجنينه التى بأرض الطبالة ومن بحرية بساتين تتصل بالبعل وكوم الريش، وما زال هذا الربع معموراً باللذات آهلاً بكثرة المسرات إلى أن كانت سنة الغرقة، وهى سنة ٧٥٥هـ فخربت دور كوم الريش وغيرها ووصل ماء النيل إلى قنطرة الحاجب فخرب ربع الزيتى وأهمل أمره حتى صار كوماً عظيماً تجاه قنطرة الحاجب وغيط الحاجب، وسمعت من أدركته يخبر عن هذا الربع بعجائب من الملاذ التى كانت فيه، وكانت العامة تقول فى هزلها : ستى اين كنتى واين رحتى واين جيتى قالت من ربع الزيتى،

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ٠٠ فكأنها وكأنهم أحلام(٣)

وكان يوجد بجوار قنطرة الموسكى ربع يسكن به بنات الخطا يفعلن الفاحشة وقد هاجم انصباى الحاجب هذا البيت فى ذى الحجة سنة ٩١٤هـ وضرب النساء اللاتى كن به وأشهرهن فى القاهرة على حمير، وبسبب مجاورة الربع لبيت الامير نوروز وهو أمير مائة مقدم الف زمن الغورى حدث نزاع ومشاجرة بين انصباى حاجب الحجاب وبينه لحمايته هو وغلمانه لهذا البيت ورفع النزاع الى الغورى فانتصف لحاجب الحجاب» .(٤)

---

(١) الخطط، جـ٢، ص١٦٦ .
(٢) البكرى، النزهة الزهية، مخطوط، ورقة٧٣ .
(٣) الخطط، جـ٢، ص٧٨ .
(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص١٤٨ .

وكان يوجد فى القاهرة العديد من المواخير منتشرة فى العصر العثمانى وخصوصاً الأزبكية.[١]، وظلت حول البرك الأخصاص التى تضم بنات الخطأ مثل التى كانت على بركة المجاورين (بركة الشيخ قمر)[٢].

وعن ارتباط المتنزهات بالامراض الاجتماعية أيضاً ذلك الرباط الوثيق بينها وبين المخدرات وعلى رأسها الحشيش[٣] الذى عانت منه مصر والمصريون كثيراً ولا تزال تعانى من مآسيه وتبعاته.

وقد انتشرت زراعة شجرة الحشيش فى بركة الرطلى وأرض الطبالة وفشت هذه الشجرة فى عصر المماليك «وولع بها اهل الخلاعة والسخف ولوعاً كبيراً وتظاهروا بها من غير احتشام»[٤] ويرجع سبب ذلك إلى سماح الدولة آنذاك بزراعته نظراً لما قد يعود عليها من ضريبته وانتشر إلى جانب الحشيش الأفيون الذى عرفه المصريون فى العصر المملوكى واستمر سائداً.[٥]

وقد قيل فى زراعة بركة الرطلى والجنينة المجاورة لها بالحشيش عدة أشعار[٦].

ويبدو أن الحشيش قد بطل زراعته فترة من البركة ولكنه زرع مرة أخرى سنة ٩١٥هـ وقد قال ابن اياس بخصوص ذلك«وكان الذى زرع الحشيش كمال الدين بن قوسان وقد استأجر أرض بركة الرطلى فكان كل من دخل اليها يبتهج بذلك لا سيما أصحاب الكتبة من الحشاشين

---

(١) أرشيف الشهر العقارى، محكمة الصالحية النجمية، ٤٩٥، حجة رقم ٥٢٠، ورقم ٥٢١، ص ٣٨٥.

(٢) البكرى، الروضة الزهية فى ولاة مصر المعزية، مخطوط بدار الكتب برقم ٢٤٠٧ تاريخ تيمور، ورقة ١٤٤.

(٣) أول من أهتم بالحشيش الصوفية وأصحاب الطرق حتى نسب إليهم فقيل حشيشة الفقراء وكان مفروضاً على الحشيش فى العصر المملوكى ضريبة عالية وقد أبطل بعض السلاطين ضمانها مثل الظاهر بيبرس وأمر بتأديب من يتعاطاه ولكن سرعان ما يعود الأمر إلى ما كان عليه ولم يقتصر تفشى الحشيش على الطبقات الدنيا من الشعب بل تخطاها إلى غيرها من الطبقات حتى شغف بها كثير من العلماء والقضاة بل أفتى بعض القضاة بإباحة أكلها لذلك نظم كثير من أدباءالعصر المملوكى أشعاراً الغرض منها إيضاح مزايا الحشيش وتفضيله على الخمر، انظر:
المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٢٦-١٢٩.، سعيد عاشور، المجتمع المصرى ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٤) المقريزى، الخطط، جـ٢ ص ١٢٦.

(٥) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٣٠.

(٦) من ذلك قول الشاعر:

بمصر لأهل اللهو والتيه بركة ... تولع فيها بالحشيش أولو العقل
ويبلغ رطلاً كل من رام أرضها ... ومن أجل هذا سميت بركة الرطلى=

فجاءت إليها الناس أفواجاً يتفرجون على ذلك الحشيش وقد وضع من أهله فى محله حتى عد ذلك من النوادر الغريبة وفيه يقول بعض شعراء العصر :

تناهت بركة الرطلى حسناً وصارت جنة فيها عروش
ومنذ زرعوا الشدانق فى ثراها يبدو نسيمها طلع الحشيش[1]

وقد ارتبطت القنطرة الجديدة فى العصر العثمانى بتعاطى الحشيش حتى أطلق عليها فى ذلك العصر قنطرة الحشاشين[2].

وكان المتنزهون على شواطىء النيل والخلجان والبرك وعلى صفحات مياهها وفى البساتين والحقول والضواحى يقيمون الولائم الحافلة ومجالس شرب الخمور، وكان شرب الخمور منتشراً فى العصرين المملوكى والعثمانى بين الخاصة والعامة[3]، وكان كثير من السلاطين وأمراء المماليك شغوفين بها حتى أن بعض أنواع منها نسب لبعض الامراء مثل التمر بغاوى والبشتكى،[4] بل نجد أن الملك الظاهر برقوق رتب شرب نوع منها يسمى القمز فى ميدان الرميلة وجعلها من شعائر المملكة أيامه[5].

=ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢١١ ومن ذلك قوله الشهاب المنصورى :

كم بالجنينة من قتيل وحشيشة لا يستفيق ولا ينفخ الصور
وهبت له الخضراء من أفعالها آذان أطروش وعين ضرير

وقوله فيها أيضاً

كم بالجنينة من أصم أبكم ورجلاه فى قيد وعيناه فى قفل
أشبهه فى خلقة بابن آدم مجازاً وفى أكل الحشيشة بالعجل
يحاول منه الناس رد جوابهم وكيف يرد القول من مات بالقتل
أيصغى بلا سمع أيومى بلا يد أيرنو بلا عين أيمشى بلا رجل

ابن اياس بدائع الزهور، جـ١، ق ١، ص ٦١.
وقد قال الأديب شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان بن على التلمسانى الشاعر المشهور الذى توفى سنة ٦٨٨هـ فى ذم الحشيش وبيان أعراضه السيئة :

ما للحشيشة فضل عند آكلها لكنه غير مصروف إلى رشده
صفراء فى وجهه خضراء فى فمه حمراء فى عينه سوداء فى كبده

ابن تغرى بردى، النجوم الزهرة، جـ٧ ص ٣٨١.

(١) بدائع الزهور، جـ٤، ١٥٦.
(٢) البكرى، النزهة الزهية، مخطوط، ورقة ٧١.
(٢) انظر بالتفصيل : سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٣١-٢٣٣.، عبدالمنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، جـ٢، ص ١٢٢-١٢٣.
(٤) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ق ٢٣١.
(٥) انظر ما سبق، ص

وكانت بركة الرطلى من المتنزهات الهامة التى ارتبطت بشرب المسكرات[1] مثلما ارتبطت بالمخدرات.

وقد ربط المؤرخون أحياناً بين أصل وديانة السكان حول المتنزهات وبين الأمراض الاجتماعية، فعلى سبيل المثال ذكروا أنه كان يسكن حول بركة الفيل فى خط قبو الكرمانى فيما بينها وبين الخليج الافرنج والكتاب وكانوا يرتكبون من القبائح ما يليق بهم وكانوا لا يراعون للدين حرمه، واشتهر المكان بالفسق والنجس حتى قام بشتاك بعمل جامعه وخانقاته سنة٧٣٧هـ فبدل الإيمان بالكفر والقرآن بالفسق فاشمئزت قلوبهم لذلك ورحل من هذا الخط أكثرهم لما صاروا يسمعون الآذان وصوت القرآن[2].

على أن هذه الأمراض الاجتماعية وارتباطها بالمتنزهات ما كانت لُتترك سدى دون حساب أو رد فعل بوازع دينى أو اخلاقى، ويعبر لنا «ابن الحاج» عن وجهة النظر الدينية فنراه يشدد على عدم خروج النساء إلى الدور التى على البرك، وما كان فى معناها، إذ انها احتوت على جملة من المفاسد منها «ركوبهن إليها على الدواب فى الذهاب والعود على الصفة المتقدمة ومنها خروج بعضهن من البيوت التى هناك على شاطىء البركة متبرجات متزينات مختلطات بالرجال، وبعضهن يغتسلن فى البركة وبعض الرجال ينظرون فى الغالب إليهن وما يفعلن أيضاً من تبرجهن إن كان فى تلك البيوت من ينظرهن من الطاقات وأبواب الريح والأسطحة وغير ذلك، ويظهرن ما بهن من الزينة وما عليهن من حسن الثياب والحلى وغير ذلك وممازاحتهن للرجال فى الغالب»[3].

وكذلك ينبه «ابن الحاج» على عدم خروج النساء فى أيام الخضير «لأن ذلك الموضع محل

---

(١) قال الشهاب المنصورى فى ذلك:

دعوتك فانهض مسرعا يا أخى الفضل ... لنشرب أرطالاً على بركة الرطلى
فقد سل كف الخصب سيف خليجه ... ليضرب عنق الجدب أو هامة المحلى
وقد مدت الأدواح أيدى غصونها ... إلى النيل تستحلى لماه وتستجلى

وقال فى الجسر الذى بالبركة أيضا:

وبى ليلة بالجسر فيها تجاسرت ... يداى على شرب المدامة بالرطلى
وقد سنح الأرام فى ضوء بدرها ... فإن خفنا من واش تسترنا بالظل
فقم نجتليها ان غزال مسلط ... بكثرة أجفان على صحة العقل

ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٦٠ـ٦١.

(٢) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص ١٢ـ١٣.، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٠٩.

(٣) المدخل، جـ١، ص ٢٧٠.

لفرجة الرجال وفسحتهم فكل من تراه هناك إلا وهو رافع رأسه إلى الطاقات والغالب عليهن الزينة والتبرج والغالب على بعض المتفرجين انهم لا يغضون أبصارهم عن المحارم، ولا يتفكرون فى ذلك بل يرتكبون المحرم جهاراً، فيمشون فى زروع الناس قصداً ويتخذونها طريقاً ومجالس وربما عملوا فيها السماع وإنشاد الشعر الرقيق المشتمل على التغزلات التى تميل قلوب الرجال فكيف بالنساء.[١]

كذلك يشدد «ابن الحاج» فى منع النساء من الدور التى على البساتين إذ أن فى ذلك كشفه لهن اللهم الا أن يكون البستان لا يدخله أحد الا بأذنه فهو أخف لأنه إذا أذن فى الدخول إلى البستان تحرز مما يتوقعه بغلق الطاقات والأبواب والأسطحة ويمنعهن من النظر فى ذلك الوقت ويباح له أن يخرج أهله إلى البستان بشرطين وهو أن يكون البستان لا يشكف عليه أحد وأن لا يدخله مع أهله غير ذى محرم.[٢]

وكذلك يشدد «ابن الحاج» فى عدم الخروج إلى النهر والى الخلجان والقناطر التى كانت متنزهات لما فيه من المفاسد والا يذهبن إلى هناك الا بعد التأكد ان موضع الفرجة لا منكر فيه ولا فتنة يتخوف وقوعها، وأما إذا انضم إلى ركوب البحر (النهر) مفسدة فالأولى المنع مثل خروجهن الى القناطر وغيرها واجتماع الرجال والنساء وما يجرى هناك مما يكل السمع عنه، فكيف برؤيته. وكذلك ما أشبهه من كسر الخليج وما يجتمع فيه من الغوغاء وما فيه اليوم من الفتن ويؤول أمره إلى ازهاق النفوس فى ذلك من الغرق أو غيره، ويذكر «ابن الحاج» كذلك انه يقع فى ذلك اليوم مفاسد كثيرة من قتل وسلب ونهب ولا يحاسب فى ذلك اليوم أحد لما جرت به العادة من قبل[٣].

كذلك يشدد «ابن الحاج» فى خروج النساء الى شهود المحمل حيث يدور فى الطرقات وكان ميدان الرميلة هو الموضع الرئيس لذلك الاحتفال لأنه كان يحدث مفاسد كثيرة آنذاك[٤].

وكان الدولة تتخذ اجراءات حاسمة تنصب على المتفرجين بالمتنزهات والمفترجات وقد ارتبط هذا الموقف المضاد بعدة عوامل أهمها، رد فعل دينى بإيعاز من رجال العلم والدين للحكام نظراً لما كان يحدث بالمتنزهات من مفاسد، وقد ربطوا بين تلك المفاسد وبين غضب الله الذى يتمثل فى انخفاض أو ارتفاع النيل عن الحد المناسب مما يسبب مشاكل اقتصادية خطيرة ومجاعات، وكذلك انتشار الأوبئة والطواعين.

---

(١) نفسه، ص ٢٧١.
(٢) نفسه.
(٣) المدخل، جـ١، ص ٢٧٢.
(٤) نفسه.

بيد أننا نلاحظ ان هذه الاجراءات كانت مؤقتة ومرهونة بظروف الأزمة فأذا زال الخطر عادت الأمور إلى سيرتها الاولى.

وعن رد الفعل للمتنزهات فى العصر المملوكى ما حدث سنة ٧٠٦هـ اثناء سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية إذ منع الاميران المتحكمان فى الدولة آنذاك بيبرس وسلار مرور الشخاتير والمراكب من دخول الخليج الحاكمى والتفرج فيه، ويبرر «المقريزى» سبب ذلك بقوله «بسبب ما يحصل من الفساد والتظاهر بالمنكرات اللاتى تجمع الخمر وآلات الملاهى والنساء المكشوفات الوجوه المتزينات بأفخر زينة من كوافى الزركش والقنابيز والحلى العظيمة ويصرف على ذلك الأموال الكثيرة ويقتل فيه جماعة عديدة ورسم الاميران المذكوان لمتولى الصناعة بمصر أن يمنع المراكب من دخول الخليج المذكور إلا ما كان فى غلة أو متجر أو ما ناسب ذلك فكان هذا معدوداً من حسناتهما».[١]

وفى أخريات رجب سنة ٧٥٥هـ هدم الأمير صرغتمش كنيسة شبرا الخيام (شبرا الخيمة) التى بها اصبع الشهيد وأبطل منذ ذلك اليوم الاحتفالات بها وما كان يحدث هناك من موسم قبيح[٢].

وعن رد الفعل أيضاً للمتنزهات ما حدث فى ربيع الآخر سنة ٧٨١هـ أيام السلطان الملك المنصور على حيث رسم الأمير بركة[٣] بإيحاء من الشيخ محمد صائم الدهر بعمل سلاسل على أفواه القناطر، فعملت على فم قنطرة فم الخور وعلى فم قنطرة الفخر بموردة الجبس وعلى قنطرة السد[٤] لتمنع دخول الشخاتير بالمتفرجين إلى الخلجان والى بركة الرطلى للفرجة ووكل لكل قنطرة من يحفظ السلاسل ويسمح بفتحها فقط لمراكب البضائع، وقد أفاض الشعراء فى تسجيل هذا الحدث فقال بدر الدين ابن الشامية أحد صوفية الخانقاة الركنية بيبرس:

يا سادة فعلهم جميل ... وما لهم فى الورى وحاشه

هم سلسلوا البحر لا لذنب ... وارسلوا للحجاز باشا

---

(١) الخطط، جـ٢، ص ١٤٣. ، السلوك، جـ٢، ص ٢٩.

(٢) السلوك، جـ٢، ص ٩٢٦. ، انظر بالتفصيل ما سبق، ص ٥١٥.

(٣) الأمير بركة كان يتولى وظيفة رأس نوبة الأمراء وكان بينه وبين برقوق صراع انتهى بقتله بالاسكندرية فى رجب سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م، وكان محباً للعلماء والفقراء وكان له منشآت ماثية بالحجاز. انظر ترجمته بالتفصيل فى:

ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٣، ص ٣٥٢-٣٥٥.

(٤) لا يزال للآن بشارع بورسعيد (الخليج المصرى) بالسيدة زينب محطة اتوبيس تسمى السلسلة وأغلب الظن انها تسمية متوارثة على المكان حتى الآن.

اشارة بذلك إلى ارسال سودون باشا إلى الحجاز فى هذه السنة لاصلاح الطرق وإجراء الماء إلى عرفه .

وقال الشهابى بن العطار :

اطلقت دمعى على خليج ... مذ سلسلوه فصار مقفل

من رام ينظر إلى عجيب ... فلينظر المطلق المسلسل

وقوله أيضاً فى المعنى :

حديث فم الخور المسلسل ماءه ... بقنطرة المقسى فى سائر الخلق

الا فاعجبوا من مطلق ومسلسل ... يقول لقد اوقفتموا الماء فى حلقى

وقال البدر البشتكى :

لئن سلسلوا من مصر رأس خليجها ... فما ذاك من نقص يلوح لفاضل

وماقصدوا إلا ليصدق انه ... يقاد إلى جناتها بالسلاسل

وقوله ايضاً فى المعنى :

قد سلسلو الخلجان فى ... مصر فعنها نكبوا

ماتم ماء مطلق ... ولا صعيد طيب [1]

وفى يوم الاربعاء ٢٦ جمادى الاولى سنة ٧٨٢هـ نودى بالقاهرة ومصر ألا يلعب أحد بالماء فى النيروز وهدد من لعب فيه بالماء أن يضرب ويؤخذ ماله فامتنع الناس فيه مما كانوا يفعلونه ووجد أربعة من الناس يلعبون بالماء فى يوم النيروز فضربوا بالمقارع وشهروا[2]

وفى يوم الجمعة ١٣ جمادى الآخرة سنة ٧٨٢هـ ركبت سلاسل على قنطرة المقسى بخليج فم الخور وعلى قنطرة الفخر برأس الخليج الناصرى بجوار الميدان الناصرى كما عمل فى السنة الماضية، فامتنعت المراكب التى تحمل المتفرجين وأهل الخلاعة من عبور الخليج وبركة الرطلى فانكف بذلك فساد كبير .[3]

---

(١) تاريخ بن قاضى شهبه، ص ٦ . ، المقريزى، السلوك جـ٣، ص ٣٥٧، ابن حجر، ابناء الغمر، جـ١، ص ١٩٣ . ، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١١، ص ١٧٠ ـ ١٧١، المنهل الصافى، جـ٣، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ . ، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٣٢٦ . ، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

(٢) المقريزى، السلوك، جـ٣، ص ٣٩٤، ابن حجر، انباءالغمر، جـ١، ص ٢١٧ .

(٣) المقريزى، السلوك، جـ٣، ص ٣٩٤ .

ومن أمثلة مهاجمة المتنزهات كرد فعل لتوقف النيل ما حدث سنة ٧٨٩هـ إذ لم يبلغ نهر النيل حد الوفاء، وأعقب ذلك الاضطراب والفوضى، فبادر نائب السلطنة الامير سيف الدين سودون بمهاجمة المتنزهين على شاطىء النيل وقبض على جماعة منهم ووبخهم ثم هاجم أماكن بيع الخمور واستولى على كميات كبيرة ضبطها هناك وأتلفها بالتراب تحت أسوار القلعة.(١)

ومثال لما يحدث من محاربة للتنزه وبعض البدع ما حدث فى رمضان سنة ٧٩٣هـ، حينما أمر كمشبغا نائب الغيبة بأن لا تخرج النساء إلى الترب بالقرافة وغيرها ومنع المتفرجين فى الشخاتير ومنع النساء من لبس القمصان الواسعة الأكمام وقد أثنى شيخ الاسلام «ابن حجر العسقلانى» على سياسة الأمير كمشبغا وذكر انه «لم يتمكن أحد فى مدة مباشرته الحكم فى هذه الغيبة أن يتظاهر بفسق ولا فجور من هيبته».(٢)

وكان «لابن حجر العسقلانى» نصيب فى محاربة التصرفات الخاطئة منها ما هو مرتبط بالمتنزهات مثل بركة الرطلى والخليج الناصرى، فقد ذكر البكرى فى كلامه عن بركة الرطلى «... وكان يعمل فيها أول يوم من توت أمر غريب وهو أن يجتمع الناس فى هذا اليوم ويأتى شخص على صورة قاضى وشاهدين و يجلسوا بفم البركة ويجعلوا نكاح الخليج الناصرى على بركة الرطلى فيقع فى تلك الليلة من القذف واللهو والإشهار بالمنكرات ما لا يوصف ثم فى صبيحة تلك الليلة تأتى جماعات بأنواع من الملاهى فى المراكب ويرموا خرق بها آثار الدم ويقولوا قد أفلحت بركة الرطلى من الخليج الناصرى، ويأكل جميع من بها الزلابية فيباع فى ذلك اليوم يفوق الالف دينار زلابية، فحين سكن شيخ الأسلام «ابن حجر» رضى الله عنه على هذه البركة ورأى هذه الكائنة الشنيعة قام فى إبطالها وذلك فى أواخر المائة الثامنة»(٣).

ومن أمثلةمهاجمة المتنزهات كرد فعل لتوقف النيل عن الزيادة وقت الفيضان ما حدث فى ذى القعدة سنة ٨٠٢هـ/ ١٤٠٠ م حيث ركب بعض الأمراءوكسبوا أماكن اجتماع الناس للفرجة ونهوا عن عمل الفواحش.(٤)

ومثال لبعض المبادرات من كبار الأمراء من مهاجمة بعض المتنزهات دون سبب قوى يستدعى ذلك كتوقف النيل مثلاً ما حدث فى رابع عشرين صفر سنة ٨٠٣ هـ/ ١٤٠١ م حيث خرج الامير يلبغا السالمى إلي شبرا الخيام من ضواحى القاهرة وكسر بها من جرار الخمر أربع

---

(١) تاريخ ابن الفرات، جـ٩، ص ٩.

(٢) انباء الغمر، جـ١، ص ٤١٨.

(٣) البكرى، النزهة الزهية، مخطوط، ورقة ٧٣-٧٤.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢. ص ٥٨٩.

وأربعين الف جرة، وأراق ما فيها ، وخرب بها كنيسة للنصاري وعاد فى آخره ومعه عدةأحمال من جرار الخمر فكسرها عند باب زويلة وتحت القلعة . ومن حينئذ تلاشى حال أهل شبرا ومنية السيرج فإن معظم أموالهم كان من عصير الخمر وبيعه . (١)

وفى سنة٨٠٦هـ/ ١٤٠٣ م لم يف النيل وحدثت أزمات عظيمة عانت منها البلادمعاناة كبيرة، لذا عندما أوفى النيل فى السنة التالية باشر السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق كسر الخليج بنفسه ، وأمربشباى الحاجب بعمل جسر على فم بركة الرطلى لمنع دخول شخاتير المتنزهين للبركة « فقطع لذة الناس من الفرجة فى تلك السنة «ونسب الجسر إلى بشباى وظل معروفاً فترة باسمه . (٢)

وعن مهاجمة المتنزهات كرد فعل لتوقف النيل عن الزيادة ما حدث يوم الجمعة سابع جمادى الأولى سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م إذ رسم السلطان المؤيد شيخ للأمير سودون قراصقل حاجب الحجاب بكبس المتنزهات فتوجه الأمير إلى شاطىء النيل وجزيرة الروضة فأحرق ما كان هناك من الأخصاص ومنعهم من الاجتماع لأنهم حسبما ذكر المؤرخون قد أظهروا المنكرات كالزنا واللواط واختلاط النساء بالرجال من غير استتار وشرب الخمور ونحوها من المسكرات وكانوا يتجاهرون بذلك غير مستحيين ، وعندما طرقهم الحاجب اضطربوا ونهب بعضهم بعضاً ، فقدر الله بعد ذلك وفاء النيل (٣) .

وكذلك توقفت زيادة النيل سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م فأمر السلطان برسباى بمنع المتنزهين على شاطىء النيل وجزيرة الروضة من إظهار المنكرات القبيحة ، وعقب ذلك حصل الوفاء . (٤)

كذلك حدث سنة ٥٨٣٢ أن هاجم حاجب الحجاب مواضع الفساد فأراق الخمر وأحرق الحشيش كما هاجم أماكن تجمع النساء . (٥)

وأيضاً لما قل النيل سنة٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م وتشحطت الغلال صار الوالى بكسر جرار الخمر وحجر على الحشيش ومنع الخواطىء من عمل الفواحش . (٦)

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٣، ص ١٠٣٠ .

(٢) ابن حجر، انباءالغمر، ج-٢، ص ٢٨٩، ابن اياس بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٦٩٤ . ،

* وقف وصف ابن اياس بشباى بأنه من الخوارج العال!! . . انظر ترجمة بشباى فى النجوم، جـ١٢، ص ٣٤٤ . ، الضوء اللامع، ج٣، ١٦ .

(٣) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٣٥٨، ابن حجر، انباء الغمر، جـ٣، ص ٠٩٣ ، العينى، عقد الجمان، (بدون ناشر)، ص ٢٦٣ . ، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٧ .

(٤) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٧٤٨-٧٤٩ .

(٥) ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص ١٤٤ .

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٦٣ .

ولما توقف النيل عن الزيادة فى شوال سنة ٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م كان رد الفعل الرسمى هو إصدار السلطان خشقدم الأمر بكف الناس عن المعاصى وردع المتجاهرين، فكبس والى القاهرة المتنزهات على الاخص بولاق والجزيرة الوسطى وأمسك جماعة من الرجال والنساء وأركبهم على حمير وشهرهم من بولاق إلى القاهرة ومن جملتهم أحد اولاد قاضى القضاة شمس الدين القاباتى فشق ذلك على الناس فصعد جماعة من الفقهاء إلى السلطان وشكوا الوالى ولكن السلطان انتصف لواليه وأرسل المنادين لينادوا بالأ يتوجه أحد الى المفترجات والمتنزهات[١] وكان لبعض الوزراء دور كبير فى الحد من بعض التصرفات الخاطئة فى المتنزهات وعلى سبيل المثال ماذكره ابن اياس عن الشمس محمد بن البباى الذى تولى الوزارة فى سنة ٨٦٨هـ أنه سكن فى بيت الوزراء ببركة الرطلى وكان متشدداً وكان يكبس البيوت على الناس فى أيام النيل فى بركة الرطلى فمن وجده يسكر إن كان رئيساً صادره وسلب نعمته وإن كان غير ذلك أدبه.[٢]

ولما توقف النيل فى الحجة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م وقلق الناس لذلك رسم السلطان للقضاة والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ويدعو إلى الله بالزيادة، كما قام تمر الوالى بمهاجمة المتنزهين بجزيرة الروضة وشوش على المتفرجين وأحرق الخيام التى كانت هناك وضرب منهم جماعة وكان يوماً مهولا ، ثم زاد النيل بعد ذلك وكان الوفاء فى محرم[٣].

وفى صفر ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م لم يزد النيل فرسم السلطان للوالى أن يتوجه إلى الروضة ومصر ونادو«ان لايفعل منكرا ومن وجد عنده شىء من المنكر ينكل به»[٤]

وفى شهر جمادى الاولى سنة٩١٧هـ/ ١٥١١م توقف النيل عن الزيادة فرسم السلطان الغورى لحاجب الحجاب ووالى القاهرة بأن يتوجها ويكبسا على المتفرجين الذين فى الخيام بالروضة فتوجها إلى هناك وخرقا بعض الخيام وأمرا الناس بالكف عن المعاصى والفسوق[٥]

وفى سنة ٩٢٢هـ لما كان جيش مصر بقيادة السلطان الغورى على وشك المعارك مع العثمانيين بقيادة السلطان سليم الاول، «فان الأمير طومان باى الدوادار نائب الغيبة منع الناس من السكن بجسر بركة الرطلى وفى المسطاحى، ومنع المراكب من الدخول فى بركة الرطلى

---

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور جـ٣ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥، ابن اياس، بدائع الزهور جـ٢، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(٢) بدائع الزهور جـ٢ ص ٤١٦.

(٣) بدائع الزهور جـ٢ ص ٤٤٠ ـ ٤٤١.

(٤) ابن الصيرفى انباء الهصر ص ٥٥.

(٥) ابن اياس، بدائع الزهور جـ٤ ص ٢٣١.

ولا فى الخلجان قاطبة، وعمل جسر على خليج الزريبة عند قنطرة موردة الجبس، فآل أمر الجزيرة الوسطى إلى الخراب ولم يسكن بها بيت ولافتح بها دكان ومنع المقاصفية الا ينصبوا مقصفا فى الجسر ولا فى الزريبة، وصارت بيوت بركة الرطلى خاوية على عروشها لا سيما بيوت أولاد الجيعان وبيت كاتب السر وغير ذلك من بيوت الأعيان، فحصل للناس فى هذه السنة غاية الإنكاد بسبب ذلك وخسروا الناس كرى بيوتهم وأشيع بسد خوخة الجسر، فتلطف القاضى بركات بن موسى المحتسب بالأمير الدوادار على أن يسمح فى دخول المراكب على العادة وأن يسكن الجسر فأبى ذلك وقال إن العوام يفسدون نساء الأغوات المسافرين صحبة السلطان فى هذه النيلية واستمر مصمما على منع ذلك، ثم فى أواخر النيلية شفع القاضى بركات بن موسى فى خمس مراكب للبياعين بأن يدخلوا فى البركة على العادة فدخل الحلوانى والجبان والفكهانى والعداس والسويخاتى لاغير فأقاموا أياما يسيرة فلم يجدوا من يبيعون عليه فمضوا حال سبيلهم، واستمرت بركة الرطلى ليس فيها ديّار ولا نافخ نار[1] فعند ذلك عمل فيها الشيخ بدر الدين الزيتونى مرثية لطيفة فى واقعة الحال.[2]

واستمر الولاة فى العصر العثمانى يكبسون المتنزهات عقب توقف النيل عن الزيادة فى أيام الفيضان، وقد حدث مثل ذلك فى شهر رجب سنة ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م» واضطربت احوال الناس فى تلك الأيام وتشحطت الغلال، فعند ذلك رسم ملك الأمراء (خاير بك) للوالى أن ينزل ويكبس الروضة، فنزل هو وجماعة من الأمراء العثمانيين وكبس الروضة وفك الخيام التى كانت بها، وأشهر المناداة هناك بأن أحد لا يتجاهر بالمعاصى ولا يجمع جموعه ولا ينصب خيمة على شاطىء البحر ومن يفعل ذلك شنق على باب داره من غيرمعاودة فى ذلك فانكف الناس عن التجاهر بالمعاصى فى الروضة فنزل فى ذلك اليوم غالب الناس من الروضة[3]

وحدث نفس الشىء العام التالى أى فى رجب سنة٩٢٥ حيث استمر النيل فى التوقف فأمر ملك الأمراء بابطال المحرمات من النبيذ والحشيش والبوزة ومنع بنات الخطا من عمل الفواحش ـ ثم أن الوالى قبض على امرأة يقال لها أنس وكانت ساكنة فى الأزبكية تجمع عندها بنات الخطا اللائى يقترفن الفاحشة وكان عليها مبلغ مقرر ترده فى كل شهر للوالى وكان أمرها مشهورا فرسم ملك الامراء بتغريقها هى وامرأة أخرى يقال لها بدرية زوجة شخص من الناس يقال له البغيضى كانت ماشية على طريقه أنس هذه فى جمعها للبنات الخاطئات فلما قبض الوالى على أنس توجه بها إلى قصر ابن العينى فى المنشية وغرقها هناك بعد العصر واجتمع كم

(١) ابن اياس، بدائع الزهور جـ٥ ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) انظر نص هذه القصيدة نقلا عن ابن اياس فى الملحق رقم

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور جـ٥ ص ٢٦٧.

غفير من الناس للفرجة عليها وكان يوما مشهودا فغرقت على النداء والاجهار وأراح الله تعالى المسلمين منها وطهرت الارض منها[١]

وكان للوالى حسين باشا الدالى[٢] دور فى محاربة الفساد بالمتنزهات مثل مهاجمته أخصاص الخاطيات ببركة الشيخ قمر (المجاورين)[٣]

وكان يحدث بالمقياس احتفال كبير لمدة اسبوع متواصل أيام وفاء النيل فى العصر العثمانى ولكن «احمد شلبى ذكر بمناسبة كلامه عن تولية حسن باشا السلحدار محافظةمصر سابقا (٢٥ شعبان ١١١٩ إلى ٩ رمضان ١١٢١هـ/ ٢١ نوفمبر ١٧٠٧ الى ١٢ نوفمبر ١٧٠٩م)-» وفى يوم الخميس أوفى النيل رابع مسرى، وهو آخر سنة المقياس، الذى كانوا يعملوه الينجشرية، سبعة أيام، عند نزح الفسقية التى للمقياس، وكان جميع أهل القاهرة يهرعون وجميع الصناجق والأغوات وشيخ الاسلام والوزير وكان يصرف فيه مال كثير، وكان دائمًا على كل من كان باش جاويش وكان جميع الاكابر والتجار يهادوه فى عمايل ذلك الاسبوع الذى لم يكن يوجد له نظير فى الدنيا فأبطلوه من سنة ١١٢١هـ[٤] ولكن الجبرتى يذكر أن هذا حدث نظرا للفتن القائمة حينئذ[٥] وكان لبعض الامراء دور فى محاربة أمور الفساد والتى حوت على كثير منها المتنزهات مثلما قام الامير على أغا سنة ١١١٥هـ حيث هجم على «الخمامير وأماكن الخطا وغيرها» وهدم بوظة الكوم التى قصاد الشيخ الطيبى وبطل الخواطى ودخل مصر القديمة فأخرج من كان فى دار النحاس من المتسببين وسمرها وكانت أولاد البلد تعمل أنس وصفا فى الروضة والمقياس وتأتى دار النحاس وكان بها طابونة وزيات وقلاسمك وكبابجى وبوظة وخمارة وخواطى حسان أبطل ذلك كله، وأخذه حسن اغا النجدلى، عمله بيت ببستان عظيم وركب على أغا من مصر القديمة وفات من قصر العينى هدم عشش النخل القصير وأبطل منه الخواطى ودخل بموكبه من الناصرية[٦].

ومن الامراء الذين كان لهم موقف مضاد للمتنزهين على بك الكبير حيث يذكر «الجبرتى» أنه قام بسد بوائك قصر السيد ابراهيم بن السيد سعودى اسكندر المطل على بركة الازبكية ومنع الناس منها لما كان يقع بها فى بعض الأحيان من اجتماع أهل الفسوق والحشاشين»[٧]

---

(١) نفسه، ص ٣٠١.

(٢) تولى على مصر من ٥ رجب ١٠٤٥هـ الموافق ٢٥ ديسمبر ١٦٣٥م حتى جمادى الآخرة ١٠٤٧هـ الموافق ٦ سبتمبر ١٦٣٧م

(٣) البكرى، النزهة (مخطوط) ص ١٤٤، الروضة المأنوسة (مخطوط) ص ٣٦.

(٤) أوضح الإشارات ص ٢٢٥.

(٥) عجائب الآثر جـ١ ص ٦٣.

(٦) الدمرداش، الدرة المصانة ص ٦٨.

(٧) عجائب الاثار جـ٢ ص ٥٦٧-٥٦٨.

ويذكر لنا «الجبرتى» ايضا انه حدث يوم السبت ٢٤من شوال سنة ١٢٠٠ هـ«نادوا على النساء بالمنع من النزول فى مراكب الخليج والأزبكية وبركة الرطلى.[١]

رابعاً : المتنزهات والأدب

كانت المتنزهات عامل جذب هام، ومصدر وحى والهام، ليبدع الأدباء والشعراء أحسن الكلام، حيث انطلقت قرائحهم فى مجال وصف المتنزهات وتصوير الحياة الاجتماعية بها فسمت كتاباتهم عنها فوق ما كتبوا فى باقى الألوان الفنية الأدبية

وقد نظم الشعراء الأشعار العديدة فى المتنزهات باللغة الفصحى واللغة العامية، وكتب الادباء النثر بكافة أشكاله، فقد كتبوا المقامات والرسائل وكذا المناظرات والمفاضلات بين المتنزهات بعضها البعض، وسأقدم نماذج منها فى الصفحات التالية[٢]

---

(١) نفسه جـ١ ص ٦٣٦.

(٢) وصف بعض النقاد الأدب فى العصرين المملوكى والعثمانى بالضعف والانحطاط والركاكة وحذى حذوهم الكثيرون، وبالرغم من أن الخوض فى هذا الموضوع بعيد عن مجال دراستنا وبحثنا إلا إننى أريد أن أشير إلى أن هذا الحكم به كثير من التجنى، فمن الخطأ تعميم هذا الحكم على أدب عصرين كبيرين من خلال دراسة سريعة غير متعمقة، لأننا وجدنا أن المخطوطات المملوكية بصفة خاصة وبعض المخطوطات العثمانية لا تزال تحوى الكثير من ألوان الأدب صادقة التعبير وجزلة اللفظ لم تر حظها من النشر.
ومن حجج أصحاب الرأى القائل بضعف الأدب هى الإسراف فى صور البديع، معنوية وحسيةوتنوع ضروبه وهيئاته متناسين أن مثل هذا الشكل كان يعجب الذوق العام والخاص فى تلك الأيام، وكانوا يطربون لتلك الصور، ولهذا تنافس الأدباء والشعراء فى هذا الشكل حتى بلغوا مرتبة كبيرة فى ذلك ينم عن مقدرة أدبية كبيرة وصنعة محكمة، لأن الحياة المادية فى العصر المملوكى اتسمت بالتزخرف والتبهرج الكبير، فمن باب أولى أن تتزخرف اللغة أيضا، وهذا يتأتى عن مقدرة لا عن ضعف لذا استساغه الناس فى زمنهم ولم يتسيغه البعض فى زماننا لأن لكل عصر ظروفه ولغته وفنونه وآدابه.
كما نجح الأدباء والشعراء فى العصرين المملوكى والعثمانى فى تناول أشكال الحياة اليومية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى نثرهم وشعرهم مما يفيد فى دراسة التاريخ.
وبالرغم من وجود كم كبير من الأدب مكتوب باللغة العربية الفصحى، وآخر مكتوب باللغة الدارجة، فإننا نجد من مميزات العصر المملوكى نجاح الادباء فى التقريب بين اللغة الفصحى والدارجة فى بعض كتاباتهم، ونتيجة لهذا التمازج بين العامى والفصيح أن أصبح الادب قريبا إلى الشعب ملتحما بحياته وظروفه لذا نبغ بين طبقات العوام أصحاب الحرف كثير من الشعراء والأدباء مثل الجزار والوراق والحمامى والصايغ والخياط والعطار والكحال.
انظر بالتفصيل: محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوكى، ص دار المعارف بمصر، أحمد صادق جمال، الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.
محمد سيد كيلانى، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى، دار الفرجانى، القاهرة، ١٩٨٤.

من أمثال المقامات التى قيلت فى المتنزهات فى العصر المملوكى اقتطف فقرات من مقامة الشيخ شمس الدين محمد بن أبى بكر القادرى التى سماها «عرف الروضة الذكية فى وصف محاسن الأزبكية»[1]، والتى كتبها عقب عمران أزبك للأزبكية، ومنها وصف الجامع وصفا طريفا قال فيه: «... أعمدته كشموع كبيرة ناصعة البياض، ورخامه المدبج قد استعار من البستان خضرة رياضه، ومن الليل والنهار لون سواده وبياضه، وكأن شرفاته المرتفعات حسان نساء فى أزرهن متربعات، وكأنه فى الليل البدر غير محتجب، سرادق من الفضة قد ضرب...»[2]

ثم أخذ فى وصف منشآت الأمير أزبك حول البركة بأسلوب بليغ تحايل فيه ببلاغته على وصف تفاصيل العمارة الاسلامية أبلغ وصف[3]، فمن وصفه لقاعات القمر ورخامها قال «وافتخرت على البقاع بقاعاتها التى هى كجنات تجرى من تحتها الأنهار، تطرد بها آناء الليل وأطراف النهار، من كل شاذروان تقربه العينان، إذا انكسر ماؤه وانسكب، تسلسل كالفضة على أرض من ذهب، وقام بعد تكسر يجرى فى أخدود، يسر الوارد عند الورود، ينتهى من تلك الأخاديد إلى فساقى، تسعى لسقيها عند الورود ألف ساقى، وتلك القاعات بها رخام ملون، كأنه من بديع الزهر قد تكون، فكأن بستانها أهدى لرخامها من رياضه حللا، محكمة النسيج لا ترى خلالها خللا.

وكل مبيت يفضح الشموس والأقمار بقمرياته، ويدهش العيون إذا نظرت إليه بحسن دهاناته، إذا قابلت قمرياته الشمس إذا بزغت والقمر إذا طلع، يظنان أن قوس السحاب وقع عليها لحبة إياها وقطع، يقابلها الدهانات البعلبكية، التى تدهش العيون برؤيتها السنية، وشى كالنقش الأخضر على ترائب الأتراب الحسان، إذا رآها الانسان أذكرته رياض الجنان، فبهجة الأنس عن مناظرها غير غائبة، وجسم جمال النقش يكاد أن يتحرك بروح حسنة وعروقه اللاعبة[4]، وتظن رخامها الملون فى حسنه من زهور الرياض، وأسوده فى أبيضه كسواد العيون منها فى البياض، وإذا قرأ القارىء الذى من سجيته الطرب، تكاد سقف تلك القاعات تنقطه من مكارم منشيها بالذهب».

ثم وصف الحمامات بقوله: «... يالها من حمامات يستوقف الناظر حسن رخامها

---

(١) نقل هذه المقامة «ابن اياس» فى كتابه «نزهة الأمم فى العجائب والحكم»، (مخطوط)، ص ٢٤٦-٢٥٥.

(٢) ابن اياس، نزهة الأمم (مخطوط)، ص ٢٤٨.

(٣) هذا تعبير المرحوم «حسن عبدالوهاب» فى مقالته «تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها»، ص ٤٠.

(٤) استعمل الأديب الألفاظ الوثائقية لوصف الآثار مثل الدهانات البعلبكية والقمريات والعروق اللاعبة مما يدل على شيوع هذه المصطلحات فى لغة الكتابة.

الوسيم، ويستوقف الأسماع صوت مائها الرخيم، وتحير فى حسن بهجتها النظار، إذا أشرفت أقمار جاماتها بالنهار. . .».

ثم وصف البركة بقوله: «إنها بركة محفوفة بالمفترجات والمناظر، ترتاح إليها النفوس وتقربها النواظر، فهى بركة أنيقة المنظر، صافية المخبر، أرضها كالعنبر، وعرفها كالمسك الأذفر». (١)

ثم وصف الحدائق حولها وما يتم به من حفلات تطلق فيها الألعاب النارية بقوله: «كأنى أراها حين سعى الناس إليها من كل مكان فى ليلة أحرقت مردة الهموم، بشهب من نيران النفط كالنجوم الرجوم، فبينما الناس فى لهو وفرح، وبسط من الأنس ومرح، إذ أطلع فلك السماء الماء فلكاً تحمل أشجاراً من نار، يقذف النفط منها أنواعاً من الأزهار، من مفضض ومذهب ومدبج من ألوان اللهب، وأسهم تنسب مع إصابتها إلى الخطأ، وضوء شمس يكشف عن وجه الظلام الغطا، فى ليلة ينجاب عن وجهها الظلام، وشاهد الناس فيها العجب، لما اصطلح الماء مع اللهب، وطار على وجه الماء فراس من ذهب، ودارت بأكف اللاعبين دواليب من نار، من غير رياش تدور على قلب ولا زنار، فيالها من نار أثلجت الخواطر، وأقرت برؤيتها من الحاضرين كل ناظر. (٢)

ثم استطرد فى وصف البركة فقال:

«. . . زادت على بركة الرطلى قناطير بقناطرها، وزهت عليها حسنا للناظرين بمناظرها، فهى فى الارض لكثرة الخلق كالسماء ذات الحُبك، وإذا كررت النظر فى منظرها العجيب يعجبك، فيالها من بركة ماؤها بتجعيد الرياح كالمبرد يجلو عن القلوب الصدا، ويرد العيون مد مائها الأسيل فلا يزال بالعيون مورداً، إذا افتخرت السماء بنجومها وسماكها افتخرت سماء مائها، بكواكب اسماكها، وان افتخرت بشموسها وبدورها، افتخرت بشموس حسانها وبدورها، فهى فى زمن النيل بمناظرها كالسماء ذات البروج، وفى زمن الخريف ذات شطوط ومروج، فإذا نضب عنها الماء خرج من سجن طينها من زغب الحب ما كان من المحابيس، وبرزت فى حلل من زهر الربيع كأذناب الطواويس، يالها من بركة إذا رآها الناظر أعلن بالتهليل والتكبير ودعا بطول البقاء لمنشأها الأمير الكبير». (٣)

وختم هذا الوصف بما كانت عليه حوانيت التجارة حولها من رواج يشبه رواجها الحالى.

---

(١) ابن اياس، نزهة الأمم، ص ٢٥٢.

(٢) ابن اياس، (مخطوط)، ص ٢٥٢.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٥٣.

ومن المقامات التى قيلت فى المتنزهات المقامة التى كتبها الإمام السيوطى وسماها «بلبل الروضة» وقد تعرض فيها لمحاسنها وما ضمته من آثار، ومقارنتها بالمتنزهات الأخرى ومنها نقتطف تلك الفقرات[1] :

«. . . روضة ذات محاسن، فيها أنهار من ماء غير آيسن، وأشجار تنبت أفانين الأحاسن، وأزهار ما بين مفتوح العين ووسن، وأطيار ترنم بلغات يعجب منها كل فصيح ولسن، روضة أريضة، عيون أزهارها مريضة، وأنواع البركات من نهرها مفيضة، روضة هى مجمع البحرين ومختار يقابل مجمع البدرين، ومنهاج يسير فيها كل فى فلك من النواعير ويدور، فهى على كل الاحوال ذات النورين، ومطلع البدرين، ومنازل الفرقدين، لم يقر غيرها بحسن إلا وكان لها منه قسم قسيم، ولم تتقابل وجوه المناظر إلا وكان وجهها وسيم، فلا غرو إن كانت ملكة المتنزهات، فإنها أوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم». [2]

«. . . ان فاخرتها مصر بأنها القديمة قالت أنا الجديدة، ولكل جديد لذة، أو ناظرتها الجزيرة الوسطى قابلتها بالكسر وقالت أنا فى ملازمة النيل الفردة البزة، وإن تطاولت نحوها الجزيرة الكبرى أعرضت عن القيل والقال، وقالت إنى يقاس بخرطومى المشتهى زلومة الفيل، وإن قال التاج أنا المرفوع على الرؤوس قالت أنا عروسة الحسن، لا سيما فى عرس النيل، والتاج فى خدمة العروس، وإن قالت السبعة أوجه لقد تعددت منا الوجوه والمناظر قالت رب واحد كألف أو يزيد عند المناظر»[3].

«كأنها بدر والنيل حولها هالة أو شمس فى وسط السماء ليس عليها سحابة أو غلالة، أو وجه دار عليه طيلسان أو سرير ملك نصب فى ميدان، أو قلب جيش له مصر والجيزة جناحان، ومسكن علماء أعلام، ومجلس قضاة وحكام، ومقر صلحاء وعباد ومقر صوفية وزهاد. وكم سكن بها من ملوك وخلفاء، وأمراء وكتاب ورؤساء، ووزراء وقراءوأولياء، وفقراء وأغنياء، وأذكياء، وذوى هيئات وأتقياء، وتلاوة قرآن، وتدريس وأفنان، وشعائر وآذان، ونغمات والحان، وقضاة أوطار، وضربات اوتار». [4]

. . يؤكل فيها حيوان البر زكيا وصيد البحر طريا، وثمر الاشجار جنيا، ويشرب فيها الماء من شوائب الاقذار عريا، ويمر فيها النسيم صحيحا عليلا، فيبرىء من الأسقام عليلا، ويشفى

---

(١) نشر هذه المقامة د. نبيل عبدالعزيز فى كتيب صغير بعنوان «بلبل الروضة»، مكتبة الآداب ١٩٨١، ص ٢٣-٤٤، وهى أيضا ضمن كتاب كوكب الروضة للسيوطى.

(٢) السيوطى، بلبل الروضة، ص ٢٤-٢٧.

(٣) نفس المصدر، من ص ٢٧-٢٨.

(٤) نفس المصدر، من ص ٢٩-٣٢.

من الأورام غليلا، ساكنها قد وقي السموم والحرور، وأعفى من شعث الكيمان والبرور. ويحيط بأرجائها النيل وما أدراك ما النيل، سيد الانهار والمسخر له جميع مياه الأرض تمده فى الزيادة كما ورد في الآثار، إن أصل منبعه من الجنة، وسمى في القرآن باسمة دون غيرة، ونطقت به السنة، وهو فى الجنة نهر العسل، ويرفعه جبريل عند رفع القرآن ومن لم يعرف فليسأل، وهو الذي كاتبه «عمر بن الخطاب» لما حمل أهل مصر الاصر، فكتب له بطاقة صدرها «من عبد الله عمر بن الخطاب إلى نيل مصر». (١)

«.. وتختص الروضة من بين سائر الأقطار بيوم هو لها يوم عيد، طالعه فى برج السنبلة والحوت للمشترى سعيد، وهو يوم الزينة، وما أدراك ما يوم الزينة، يوم يحشر له الناس، ويحج به الى المقياس، وتطيب من تخليقة الأنفاس، ويسبل فيه ستر الوفاء بالعفو وفى الحقيقة خلعة رضا ولباس، وتكمد الحساد، وتجتمع الاضداد، فيحصل الصفاء إذا انكدر، والجبر إذا انكسر، ويبلغ الخلق من النيل غاية النيل، ويسحب الماء على بساط الأرض الذيل، ويركب إليه الملك والجنود، وتعقد له الألوية والبنود، ويكون من ماءه ولونه المحمر الورود، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود، وله فى كل سنه أجل معدود». (٢)

وكانت المفاخرات والمناظرات بين المتنزهات لونا أدبيا شيقا لما حوته من صور بيانيه بديعة، إلي جانب ما حوته من معلومات تفيد فى دراسة الحياة الاجتماعية التاريخية ومن أمثلة ذلك تلك المفاخرة بين بركة الرطلى والجسر عليها. (٣)، ومنها أيضاً مفاخرة بين جزيرة الروضة ومصر وهى من انشاء الشريف صلاح الدين محمد بن ابى بكر، ونقطتف منها بعض الفقرات. (٤)

«... فقالت مصر بسم الله تبركا لفظا ومعني، أنا القديمة مثنا، والذى اذا عدت أوصاف غيرى من البلدان فرادى جائت محاسنى مثنى مثنى، لى سمعة فى الجاهلية والاسلام، وإذا حل فى حال دام الأمن بسلام، وشبه بعض السلف خلق الدنيا بالطير، وإنى الصدر، وحسبك هذا التشبيه رفعة فى القدر، فخري على البلاد، كفخر العلماء على العباد، وذكرى فى كل ناد، بين حاضر وباد، أنا نزهة النفوس، ومطلع البدور والشموس، وإذا بدا زمن الربيع فترانى كالعروس، وحبذا بساتينى المفننة بكل عصر طايل ونيلى الجاري كالسكر المذاب النايل، وأحسن بقول القائل:

---

(١) السيوطى، بلبل الروضة، ص ٣٦-٣٩.

(٢) نفسه، ص ٤١-٤٤.

(٣) انظر تلك المفاخرة كاملة فى الملحق الأول.

(٤) نشر السيوطى المقامة كلها فى كتابه كوكب الروضة (مخطوط) ص ١٦٦-١٦٩.

ارض مصر فتلك أرض　　من كل فن بهـا فنون

ونيلها العذب ذاك بحر　　ما نظرت مثله العيون

فقال الروضة : « الحمد لله علي هذه المسرة ثم الحمد لله الذى أظهر محاسنى ، بشهادة الضرة وأقر كل لسان ممن رآني بأنى لانشراح القلوب مقرة ، أنا للجموع رامقة ، وبأنواع الفرح والخير قانصة ، ولموج الحرث الزى مثل الجبال غايصة ، أزهارى بطيبها تفوح ، وبألوانها المعجبة تتبهرج وتلوح ، وأغصانى تتمايل طربا إذا فاخر ضدضده ، أنا العروس بالتحقيق فى زمن الربيع ، أنا زهرى الباسم الناسم ، وتلوينه البديع ، أنا لساكنى من الوشاة والرقباء والأعادى لاسيما فى أيام النيل حصناً منيع » . (١)

« . . . فقالت مصر للروضة : «الآن حصحص الحق ببيانه ، وظهر كتمانه أسأت بهذه المقابلة ، وكيف لك بالمطاولة ، أنا فضلى مذكور ، وصيتى غير منكور ، ودليلى القاطع كالسيف عند أهل العلم مشهور ، ذكرت فى أربع وعشرين موضعا من التنزيل ، منها أربعة صريحة وباقيها بتأويل ، ووردت الأخبار بسندها فى بصحة الأقاويل ، شهد الاجماع بفضلى ، ولى الآثار الجميلة والجامع العتيق كعبة للمصلى ، وأنا مأوى النزيل من أبناء السبيل والعالم والصالح والمتولى ، وكم للنزهة والتعبد عندى من زاوية ، وكم فقير بالبحر من راوية ، لطفت أبنائى فوصفوا بالرقة والصفا ، وتمازجوا بحلاواتهم حب الوفا ، فقيل عنهم ما ليس فيه خفا :

حبذا الفسطاط من والدة　　جنبت أولادها در الجفا

والنيل يأتي إليها كدرا　　فإذا مازج أهليها صفا

فقالت الروضة : «تبرهن البرهان ، وبان البيان ، قال الله عز وجل «فى روضة تحبرون» ، وقال تعالى «فى روضات الجنات لهم من يشاءون» ، وحسبى بهذا دليلا إذ كثر المكثرون وإن لم أكن تلك فى المعنى والعيان ففيه تشبيه لى بأحسن الجنان ، وهو من أقوى الدلائل على تفخيم الشأن ، فإذا شهد بفضلك الإجماع فأنا كذلك وأزيد عليك بالقياس ، وعرفت على الحقيقة بالوفا دونك بالا يناس ، واشتهر افتخارى يوم الزينة على العاصى وغيره من الناس ، وان كان لك جامع فلى الزيادة ، وأثار جميلة ، فكم الأصابع زيادة ، أياد أنا بها عيد وهى عادة (٢) .

وفقالت مصر «أنا مدينة الكسب والمعاش وللمقيم بى إقامة حال معاش ، ومعدن المتاجر والمتاجر وذوى الرياش أنا مستودع نفائس الأموال وحواصل أربع من رباعى للأحبة مربع ، ومخلص بالمضطر فى بيوتى عند كل مطلع ، وفى كل ناحية منى للمتنزه مرتع ، قالت الروضة

(١) السيوطى ، كوكب الروضة ، ص ١٦٧ .　　(٢) السيوطى ، كوكب الروضة ، ص ١٦٨ .

ان كان بك غلال فكم بك من مغلول، وعلى تنفق الأموال وتروح الأرواح فلك الحاصل ولى المحصول»[1].

والمخطوطات تحتفظ بأمثلة عديدة من تلك المناظرات والمفاخرات كما حرص الأدباء على ذكر المتنزهات فى أدب المراسلات فى العصر المملوكى من أمثلة ذلك ما كتبه المؤرخ بن حبيب (توفى ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) فى مراسلة إلى بعض أصحابه بحلب ذكر فيها «وأما ديار مصر فإنها نعم الديار، وهى كما قيل شرك النفوس وعقلة الأبصار، تولد حيرة العقول بحسن حورها وولدانها، وتقرط الأسماع بنغمات أطيار قرطها وكتانها، وتجدد الأفراح بمقطعات نيلها، وتتقرب بسائر النزه إلى قلب نزيلها، ما أحسن جيزتها التى جازت الحد سيوف لهوها اللماعة، وأعطر روضتها التى لم يزل منصوبا بها منبر الخلاعة. يحلو لطرف المتنزه بها اجتلاء جلاها، ويجود ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين مشتهاها، وأما البحر فحدث ولا حرج، واركب فيه باسم الله تظفر بكل مطلوب من الفرج، كم لأصابع مقياسه على الخلق من الأيادى. وكم لخلجانه من منهل يرده الرائح والغادى، وكم له من منظره عالية تقول هل من مناظر، وزربية عيون شبابيكها ناظرة إلى كل روض ناضر، وعلى الجملة فأنه بحر تعجز عن حصر محاسنه ألسن الأقلام..»[2].

ومن الألوان الأدبية التى كانت مرتبطة بوفاء النيل رسائل البشارة التى كانت تصدر عن ديوان الإنشاء وهذه البشارة من خصائص الديار المصرية لا يشاركها فيها غيرها من الممالك «وقد حرص حكام مصر من قديم الزمان أن يكتبوا البشارة بوفاء النيل إلى ولاة الأعمال اهتماماً بشأن النيل واظهاراً للسرور بوفائه الذى يترتب عليه الخصب الذى يؤدى إلى العمارة وقوام المملكة»[3].

ونالت جزيرة الروضة حظا موفوراً فى سجلات الأدب والأدباء فى العصر المملوكى بصفة خاصة بصفتها عروس المتنزهات والمفترجات.

ونقتطف بعضا من الأشعار التى قيلت فيها مثل قول الشاعر المتصوف محمد بن وفا الذى كان يسكن فيها فأضفى عليها من روحانياته وصوفيته جملة معانى، فقال:

رأيت رياض القدس فى روضة الرضا ... على نيل مصـــر بين تلك المناظر

مناظـــرها للناظـــرين مشـــارق ... وفيها وجوه كالبدور البوادر[4]

---

(١) نفس المصدر، ص ١٦٩.
(٢) ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ٢، ص ٢٧١.
(٣) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٨، ص ٣٢٨-٣٣٠.، قاسم عبده قاسم، النيل، ص ١١٣.
* وانظر نماذج من البشارة فى الملحق رقم ٣.
(٤) محمود رزق سليم، النيل فى عصر المماليك، ص ١٤١.

ويزهر البدر البشتكى بمصر بسبب متنزهاتها فيقول:

انظر إلى مقياس مصر وغن لى ... من روضة المعشوق فى عشاق
وافخر بمصر على البلاد فنيلها ... يقضى على الأوصاف باستغراق
وتخلخلت منه الغصون ومذ علا ... دار دوائره على الأسواق
لله فى أفق الجزيرة ملعب ... كانت نجوم السعد فيه رفاقى
حيث الصبا تصبى اللبيب لأنها ... تملى عليه مصارع العشاق [1]

ورسم لنا الشاعر ابن أبى حجلة [2] صورة لجزيرة الروضة وقد علت سماءها غيوم والسفن تتسابق حولها فيقول:

أو ما ترى غيم السماء كأنه ... نَدٌ يلوح لنا بأفق المجلس
والروضة الفيحاء باكرها الندى ... وكسا خمائلها رياض السندس
والسفن تبدو كالعرائس حولها ... قد أقبلت مثل الجوارى الكنس [3]

ويرسم لنا الشاعر أيضا صورة لجزيرة الروضة مفعمة بمجالس الطرب والموسيقى وسط طبيعة ساحرة من الأزهار يحيط بها النيل فيقول:

وكأننا فى روضة المقاس والـ ... ورقاء قد غنت على العيدان
وشدت بلحن معرب فاعجب لها ... أر أيت أعجم معرب الألحان
فالطلُ درٌ قد تناثر عقده ... والزهر منه مرصع التيجان
والبحر قد رقت حواشى برده ... والريح تصقله بغير توان [4]

ويصور لنا الشاعر عزالدين الموصلى جزيرة الروضة فى صورة جمالية متعددة الرؤى فقال:

---

(١) محمود رزق سليم، النيل فى عصر المماليك، ص ١٤١.
(٢) ابن حجلة هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبى بكر بن عبد الواحد المغربى (٧٢٥ ـ ٧٧٦هـ)، محدث، فقيه، نحوى، أديب. انظر: الزركلى، الاعلام، جـ١، ص ٢٥٥.
(٣) محمود رزق سليم، النيل فى عصر المماليك، ص ١٤٢.
(٤) نفسه، ص ١٤٣.

روضة نقشتها للحيا إبر ... فأصبحت بين تطريز وتزهير
مثل السوار لها سرو احاط بها ... من سلسل هى منه ذات تسوير
أو كالخلاخيل للأرواح دار على ... سوق لها مطلقا فى زى مأسور
تحت الرياض غياض دبجت فبدت ... ألوانها ذات تشهير وتشذير
أغصانها الند والأوراق سندسه ... والزهر عرق ياقوتا ببلور
والزهر بين شعاع الشمس تحسبه ... دراهمًا نثرت بين الدنانير
والظل ثوب إذا مر النسيم به ... فالروض ما بين مهتوك ومستور
ونهرها زائد بالخصب يؤذننا ... كصارم فى سبيل الله مشهور [1]

ومما قيل فى مصر وبه ذكر الروضة، قول الشاعر ناصر الدين أبو بكر العيذراوى :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما ... هى الجنة العليا لمن يتفكر
فأولادها الولدان من نسل آدم ... وروضتها الفردوس والنيل كوثر [2]

ومن المقطعات الأدبية فى الروضة والمقياس والمشتهى، قال ابن الصايغ الحنفى [3] :

وليلة مرت بنا حلوة ... ان رمت تشبيها بها عبتها
لا يبلغ الواصف فى وصفها ... حدا ولا يلقى لها منتهى
بت مع المعشوق فى روضة ... ونلت من خرطومه المشتهى [4]

ومن المقطعات الأدبية فى جزيرة الروضة والمقياس، قال الشيخ برهان الدين القيراطى [5]، وقد جمع متنزهات الروضة مثل المعشوق والمشتهى والمنتهى :

---

(١) محمود رزق سليم، النيل فى عصر المماليك، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) نفسه. وقد ذكر ابن إياس هذين البيتين بصيغة أخرى هى :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما ... هى جنة الدنيا لم يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها ... وروضتها المقياس والنيل كوثر

انظر، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٥١.

(٣) ابن الصايغ، هو موفق الدين أبو البقاء يعيش بن على، المتوفى سنة ٦٤٣هـ، شهد أدباء دمشق له برسوخ القدم فى فنون الأدب. انظر: ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٧، الحاشية.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٥٤.

(٥) هو عبدالله محمد بن عسكر. . أبو محمد (المتوفى سنة ٧٣٩هـ) سمع من الدمياطى وابن دقيق العيد وقرأ الأصول على الباجى والجزرى والعربية على أبى حيان إلى نظم وسط انظر: ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٨ (الحاشية).

وروضة أضحى لها المنتهى ... وحسنها المعشوق والمشتهى
وهى لمن قد حلها روضة ... وجنة فيها الذى يشتهى

وقال أيضا :

رشق القلب بالسهام رشيق ... مشتهى حسنه هو المعشوق
هو فى مصر روضة ومحيا ... ووسيم يصبو إليه المشوق

وقال الشهاب المنصورى :

كأنما الروضة الغناء غانية ... بحبها قلب هذا النيل مشغول
أعطافها من غصون الدوح مائسة ... وريقها من زلال الماء معسول

وقال أيضا :

اسفر وجهها ورنا مقلة ... يا خجلة البدر وظبى الصريم
فى مشتهى وجنته روضة ... تزهو بوجه قمرى وسيم [1]

وقال الشيخ كمال الدين جعفر الأدفوى :

لروضة مصر حسن لا يسامى ... يطيب لمن أقام بها المقام
لها وجهان ممدوحان حسنا ... وذو الوجهين مذموم يلام

وقال على بن رستم المعروف بابن الساعاتى :

انظر إلى روضة الغناء والنيل ... واسمع من بدائع تشبيهى وتمثيلى
وانظر إلى البحر مجموعا ومفترقا ... هناك أشبه شىء بالسروايل
والريح تطويه أحيانا وينشره ... نسيمها بين تفريك وتعديل

وقال :

فى روضة المقياس صوفية ... هم بغية الخاطر والمشتهى
لهم فى البحر أياد علت ... وشيخهم ذاك له المنتهى [2]

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ، ق١ ، ص ٥٥ .
(٢) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، جـ٢ ، ص ٣٢٥، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ، ق١ ، ص٥٤ .

وللشهاب المنصورى فى المقياس :

تقول لنا مصر أنا خير موطن ... ولا ناس فى الامصار أظرف من ناس
فإن تك أوقات السرور قصيرة ... فلا تقطعوها فى إلا بمقياس

وللبدر البشتكى :

انظر إلى مقياس مصر وغن لى ... فى روضة المعشوق فى عشاق
وانظر إلى الأغصان كيف تمايلت ... لسماع نوح الورق فى الأوراق

وقال آخر :

تقول مصر حين قاسوا القرى ... بها أيا من ضيعوا حرمتى
بأى شىء قستمونى به ... وبسطة المقياس فى قبضتى

وللشهاب بن صالح :

إن جئت بحر النيل عدى روضة ... يا مشتهاى وقاتلى من صدّه
ولئن أتتك من العذول ملامة ... فاضرب على قول العذول وعدّه

ومما قيل فى القوس الذى كان بالروضة والذى تخلف من القلعة الصالحية وهو من المتفرجات القديمة، قال فيه شمس الدين النواجى :

مصر قالت دمشق لا ... تفتخر قط باسمها
لو رأت قوس روضتى ... منه راحت بسهمها [1]

ومن الاشعار التى قيلت فى البرك فى العصر المملوكى.

كتب الصلاح الصفدى إلى بعض أصحابه يتشوق لبركة الفيل :

يا بركة الفيل كم لى فيك من وطر ... وددت لو أشتريه فيك بالعمر
أفديك من بقعة فى الأرض أحسبها ... ترد قول المعرى عند ذى النظر
تطاول الأفق فى حسن وتفضله ... وتكشف الشهب ما فيها من الدرر
يطل من كل دار حولها قمر ... وليس للأفق يا هذا سوى قمر

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٥٥.

والماء مثل السما لونا وباطنه ... يشف عن نبرات الأنجم الزهر
قطعت فيها ليالى الأنس مع فئة ... تعلم اللطف منهم نسمة السحر
قد أدبوا الدهر حتى لان جانبه ... فراق أزرق فى الآصال والبكر
من كل من فاق فى فضل وفى أدب ... فما تلفظ إلا جاء بالدرر
إذا سقاك وعاطاك الحديث فما ... يحتاج فيه إلى الألحان الوتر
لو ساعدتنى الليالى زرت ساحتها ... سعيا على الرأس أو سعيا على الشعر
أخبار سكانها فى الظن طيبة ... فليت شعرى هل يدرون ما خبرى [1]

وفى بركة الرطلى يقول الشيخ شمس الدين بن الصايغ الحنفى:

فى أرض طبالتنا بركة ... مدهشة للعين والعقل
ترجح فى ميزان عقلى على ... كل بحار الأرض بالرطل [2]

وقيل فيها:

انظر إلى بركة الرطلى مبتهجا ... واشرح محاسنها ياأيها الحاكى
الماء والبنت والحور الحسان بها ... كأنها جنة حفت بأملاك

وقال آخر:

قد قلت فى بركة الرطلى إذ جمعت ... من البدور وأصناف الملاح زمر
إن كان فى الفلك الأعلى يرى قمر ... فهذه فُلك دارت بألف قمر

وقال الشهاب المنصورى:

دعوتك فانهض مسرعا يا أخا الفضل ... لنشرب أرطالا على بركة الرطلى
فقد سل كف الخصب سيف خليجه ... ليضرب عنق الجدب أو هامة المحلى
وقد مدت الأدواح أيدى غصونها ... إلى النيل تستحلى لماه وتستجلى [3]

---

(١) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٦٠.
(٣) نفسه.

وقال على بن سودون مواليا :

يا بركة الرطلى ليش روحى لكى ترتاح ... لأن ما فيك لا غولة ولا تمساح
كم من فتى استحى اليكى راح ... خلع عذارو وصار فيك خليع مشكاح

وقال المنصورى فى الجسر الذى بالبركة :

وبى ليلة بالجسر فيها تجاسرت ... يداى على شرب المدامة بالرطلى
وقد سنح الأرام فى ضوء بدرها ... فإن خفن من واش تسترن بالظل
فقم نجتليها من غزال مسلط ... بكسرة أجفان على صحة العقل

وقال المنصورى فى الجنينة التى بجوار بركة الرطلى :

كم بالجنينة من قتيل حشيشة ... لا يستفيق ولا بنفخ الصور
وهبت له الخضراء من أفعالها ... آذان أطروش وعين ضرير

وقال فيها أيضا :

كم بالجنينة من أصم أبكم ... ورجلاه فى قيد وعيناه فى قفل
أشبهه فى خلقه بابن آدم ... مجازا وفى أكل الحشيشة بالعجل
يحاول منه الناس رد جوابهم ... وكيف برد القول من مات بالقتل
أيصغى بلا سمع أيومى بلا يد ... أيرنو بلا عين، أيمشى بلا رجل

وقيل :

بمصر لأهل اللهو والتيه بركة ... تولع بالحشيش أولو العقل
ويبلغ رطلا كل من رام أرضها ... ومن أجل هذا سميت بركة الرطلى [1]

وكان من مفترجات القاهرة قديما وكان يعرف بالتكة، وخليج الذكر، وكان مكان الأزبكية الآن، وفيه يقول العمار:

يا طالب التكة نلت المنى ... وفزت منها ببلوغ الوطر
قنطرة من فوقها تكة ... وتحتها تلقى خليج الذكر

(١) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢١١.

وفى بركة الأزبكية ينشد الشيخ شمس الدين القادرى :

يا حسنها بركة بالحسن ما برحت ... تزهو على سائر الخلجان والبرك
تجمع الحسن فيها من معادنه ... فأصبح الحسن فيها غير مشترك
حفت بدارتها الأقمار فهى بهم ... تضئ فى حندس الديجور والحلك
مرآة حسن فربات الجمال بها ... مثل الشمس تُرى فى دارة الفلك
وعندما نصبت أشراك بهجتها ... صادت طيور قلوب الناس بالشرك [1]

وقال المنصورى فى جزيرة أروى والزربية :

قم سيدى نسعى إلى فرج زهت ... ما بين أملاق وبين جسور
ونرى زرابيا بها مبثوثة ... تسبيك بالولدان أو بالحور

وقال آخر :

إذا رحت بالجزيرة كى اعدى ... أرى خلقا كخيل للطراد
فاذكر يوم حشر الخلق طرا ... وأدعو بالسلامة فى المعاد

وقال ابن أبى حجلة :

أمسيت فى قصب الجزيرة مغرما ... وبقده العسال كالولهان
عيدانه لولا حلاوة ذوقها ... شبهتها فى الشكل بالمران

ولابن قادوس فى الجزيرة :

أرى سرح الجزيرة من بعيد ... كأحداق تغازل والمغازل
كأن مجرة الجوزاء خُطت ... وأنبتت المنازل فى المنازل [2]

وقيل فى موردة الحلفا :

بدا الشعر فى الخد الذى كان يشتهى ... يبين للمحبوب حالى وما يخفى
وقد كانت الوجنات بالأمس روضة ... من الورود وهى الآن موردة الحلفا

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق ١، ص ٥٩.
(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٥٨.

وقيل فى جزيرة الطمية لابن مكانس :

بأبى الطمية جنة قد زخرفت ... حور وولدان بها ورحيق
لى فى ربى قيناتها الرتب العلى ... ولها بقلبى هزة وعلوق

وقال الشيخ إبراهيم المعمار فى جزيرة حليمة :

جزيرة البحر هامت ... بها عقول سليمة
لما حوت حسن معنى ... وبسطة مستقيمة
فكم يخوضون فيها ... وكم مشوا بنميمة
ولم تزل ذى احتمال ... ما تلك إلا حليمة [1]

وقيل فى بولاق، لبعضهم زجل :

فى جزيرة بولاق رأينا عجب ... أسد ساروا معهم ظبا شاردين
حين رأينا ذيك الوجوه الصباح ... أذهلونا خضنا مع الخائضين [2]

وقال الشيخ شمس الدين النواجى فى منية السيرج :

أركب النيل ما استعطت ففيه ... راحة الفتى وغاية بغيه
كم تفرجت حين سافرت فيه ... فى بلاد وكم ظفرت بمنيه [3]

وقيل فى كوم الريش، وهى من المفترجات القديمة :

انظر إلى كوم ريش قد غدا نزها ... للبّ كل سليم الطبع يجتلب
به بحار لآلى قد حوت قضبا ... من الزبرجد منها يحصل العجب
ولا تقل كوم ريش ما له ثمن ... فإنّ بالريش حقا يحسن الذهب

وقيل فى قناطر الأوز، وبرك البشنين :

فى مصر تُعزى للأوز قناطر ... يصبو النديم بها لخمرة كأسه
وحكى بها البشنين شخصا خائضا ... فى الماء لف ثيابه فى رأسه

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٥٦.
(٢) نفسه، ص ٥٨. (٣) نفسه، ص ٥٩.

وقال ابن حجة فى التاج والسبع وجوه وكان من مفترجات مصر قديما :

سبع وجوه لتاج مصر ... تقول ما فى الوجود شبهى
وعندنا ذو الوجوه بهجى ... وأنت تاج بفرد وجه [1]

وفيه يقول الصاحب فخر الدين بن مكانس، من موشح :

والتاج يعلو فوق هام الزهر ... والسبعة الأوجه ذات البشر
وكل وجه حولها كقصرى ... مثل بروج حل فيها بدر

وقد أتى فى كل برج سعد [2]

وقال الصاحب فخر الدين بن مكانس فى بئر البلسان بالمطرية من موشح :

انظر إلى أنوار بئر البلسم ... فهى سبيل صحتى من سقم
لكونها فيما يقال تنتهى ... إلى المسيح السيد ابن مريم

يحيى بإذن الله ميت اللحد [3]

وقال :

بئر لها التعظيم والجلالة ... بدرا أنارت واستدارت هاله
أنموذج الفردوس لا محاله ... لها على الجنة أى دلاله

تذكر الناس نعيم الخلد [4]

وقد حمل لواء الأدب فى العصر العثمانى أسرة السادة البكرية، وقد امتازت المدرسة البكرية الأدبية فى أشعارها ونثرها بوصف الحدائق والبساتين والقصور والبرك والنسيم العليل وما يتركه فى النفس من أثر [5]، وقد حظيت بركة الأزبكية بنصيب وافر فى مطارحاتهم الأدبية لأن معظم إقامتهم كانت بقصورهم عليها.

وقد وصف الرحالة الأديب عبد الغنى النابلسى البيئة العلمية للبكرية يقوله اثناء زيارته

---

(١) نفسه، ص ٦١.
(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٦٢.
(٣) نفس المصدر والجزء، ص ٣٤، ٣٥.
(٤) نفس المصدر والجزء، ص ٥٧ ـ ٥٨.
(٥) محمد سيد الكيلانى، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى، ص ١٢٩.

مصر ونزوله ضيفا عليهم سنة ١١٠٥هـ : « . . ثم لم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى منزل الهمام، بركة الأنام، الشيخ زين العابدين البكرى الصديقى، فتلقانا بصدره الرحب وجلست عند حضرته حصة من الزمان فى مجلسه المطل على بركة الأزبكية ذات الروح والريحان، التى فيها نفحة من نفحات الجنان، وتذاكرنا معه فى بعض المسائل العلمية، والمطارحات الأدبية، والقصائد الشعرية، واجتمعنا هناك عنده بقريبنا وعزيزنا الفاضل الكامل محمد أمين المحبى[١] الشامى، وبصديقنا الفاضل الأديب الشيخ شاهين فتح الله، وقد أنزلنا الشيخ فى دار لصق داره، بحيث لم نخرج عن ظله وجواره»[٢].

وقد استأثرت بركة الأزبكية بكثير من كتابات الأدباء المصريين أو الزائرين لها فى العصر العثمانى، وقد جمعتهم الحضرة البكرية على شواطئها، ومن قصيدة للمحبى حرص فيها على ذكر البركة بالإضافة لمدحه للشيخ زين العابدين البكرى، قال:

يا حبذا خضر الخما ... ئل فى رياض الأزبكية
وخفوق أردية النسيم ... سرى ببقعتها الندية
أرض تكتنفها الحدا ... ئق والرياض الأريضية
وتعطرت أرجاؤها ... بالرايحات المندلية
فواجه بشذا العبير ... وعابقات عنبرية
وترنمت أطيارها ... سحرا بأصوات شجية
وإذا تأملت القصو ... ربها عرفت لها المزية[٣]

وللنابلسى فى بركة الأزبكية:

رعى الله من مصر على القرب موردا ... به النيل وافى ماؤه يذهب الصدا
له الحظ من كل النفوس تشوقا ... إليه وقد مدت عليه العلا يدا
يسمونه بالأزبكية بركة ... مباركة كل المياه لها فدا
تظل بها الأمواج ترسم نقشها ... كوجه عروس لاح فى الحسن مفردا
يباكرها ريح الصبا فيمسها ... ويكثر فيها بالعشى ترددا

---

(١) هو صاحب كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر.
(٢) الحقيقة والمجاز، ص ١٨١.
(٣) نفسه، ص ١٨٤.

إذا زال فيها الماء كانت حديقة ... فتلبس ثوبا أخضرا ومورد
وإذا قل الماء إذ زال بعضه ... فروض على شط حكى النهر قد بدا
ومن حولها تلك القصور تزخرفت ... وجلت بها فيها وزادت تودد
وفيها شبابيك عليها مطلة ... وعيدانها صيغت لجينا وعسجدا (١)

وينتقل النابلسى بعد ذلك إلى مدح الشيخ زين العابدين البكرى، والنابلسى أيضا فى بركة الأزبكية:

وبركة مباركة ... لأزبك الأتابكة
تكاد من إشراقها ... تنزلبها الملائكة
مصر بها فى عصرنا ... قد فاخرت ممالكه
منبسط الماء بها ... تبدى الصبا سبأيكه
وقانص الأسماك قد ... أوردها شبأيكه
كم حولها قصر زها ... بمدء أرأيكه
وماؤها إن جف ... فهى روضة مباركه
يسرح فيها الطرف لا ... يدرى بها مسالكه
وكم بها من جؤذر ... يحوى العيون الفاتكه
وكم هنا طالع ... بدر الليالى الحالكه
وكيف لا وهى التى ... تهدى بليل سالكه
يسر بيت مفرد ... ما أن ترى مشاركه
بيت الكمال والهدى ... البكرى نعم ذلك
لم يزل الفخر له ... وما عداه تاركه
كوكبه زين العبا ... د المقتفى مداركه
بحر العلوم كامل ... فى كل فن شاركه
وكم من غريب ضايع ... ربى به تداركه
وكم به من همة ... قامت وكانت مباركه (٢)

وأقول فى النهاية أن جزءاً كبيراً من كتب الأدب المملوكية والعثمانية لا تزال مخطوطة وتحتاج للنشر.

(١) الحقيقة والمجاز، ص ١٨٦.
(٢) الحقيقة والمجاز، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.